مصطفى محمود

الطوفان

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الطوفان

مسرحية من فصل واحد

تفتح الستار على ظلام دامس ، ثم نسمع قرع طبل هائل يعلبه بزوغ الفجر من بطن الظلمة ، ونرى ملاكاً وسط دائرة النور الكاشف يقرأ من كتاب كبير مفتوح ، وحوله سرب من الملائكة ترقص فى تشكيلات تعبيرية على موسيقى غاية فى الصفاء والرقة .

نسيحات سولو وكورال .

لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله . . لا إله إلا الله

الملاك الراوية :

فى مبدأ الكون
والملائكة سجود
وآدم فى مهد الوجود
أول بشر
فيه نفخة من روح الرءوف الودود
وتحت رجليه الجميع خُدَّام
وإبليس الرجيم مطرود
بيجادل الرب العظيم
إزاى تِفَضَّل الطين

على جن مخلوق من النار الشريفه
بـــعـــزتك يـــا رب
لازم حافضح الطينة الدنيه
وأغوى السلالة الـــدُّون
وأضـــلـــل الـــذريـــه
وأجـــعـــل لى منهم تبع
وعـــبـــيـــد وجـــنـــود
أباهى بيهم جلالتك فى عرش النار
والكون يرجف والسموات حاتهدّ م الرعب
والأرض بتميد م الفـــزع
واحنا خشوع ساجدين وساكتين
بـــتـــعـــجب من أمر إبليس
ومن الصلف والكبر والعناد والجحود
ساعتها كان آدم وحيد
ومفيش لإبليس عليه مدخل
لما بقوا اتنين آدم وحواء
واحد يقول آه والتانى يقول لأ
دخل إبليس فى أرض الخلاف

ودخل بين الأخوين قابيل وهابيل

وقتل قابيل أخوه

وجت البشرية من ضمهم مفاح

ندم بالدموع ساعة الممات

وبدأت حكاية عجب ...

موسيقى تصويرية

يظلم المسرح تماما .

وتعود فرعة الظل الداخل تخبرنا طلعة فجر أحمر . وتتحول الإضاءة كلها الى حمراء وعاصفات عسكرية

ثم ترى عروضا سينمائية للقصاصات من حروب مختلفة . ابتداء من المبارزات بالسيوف . للانتحام بالخيول . للجيوش الجرارة . حروب المدافع والمدرعات . حروب الطائرات والبوارج والصواريخ والقنابل الذرية ثم قطع فجائى على عروض بالية رقيقة

ثم عروض سينمائية عظيمة لمئات الآلات والعازفين ثم لحظات من أوبرات حب ناعمة شاعرية

ثم لقطات لتطور العلوم والفنون من العربة للقطار للباخرة للطائرة . لظهور العلوم الإلكترونية والأقمار الصناعية . والتكنولوجيا الحديثة وبناء السدود والمصانع . وناطحات السحاب . والكارى المعلقة . والبواخر العملاقة . وعصر الفضاء . والمشى على القمر ونزول فايكنج على المريخ وتصوير كوكب المشترى . ثم زحل . ثم مرة أخرى ترى انفجارات لتجارب قنابل ذرية

ثم قرع الطبل داخل وغرق كل شىء فى الظلام . ثم ظهور الملاك الراوى فى فجر أخضر يقرأ من كتاب القدر .

الملاك الراوى يقرأ ومن حوله الملائكة جالسين فى حلقة ينصتون

عصور بعد عصور
الفراعين والفرس والرومان
والهكسوس والمغول والتتار
والعرب والإنجليز والفرنسيس
والروس والألمان والأمريكان
إنسان عجيب لغز طلسم
فيه النور والنار والشر والخير
وتجبُّر الجبار وحلم الحليم
ورحمة الرحمن وعزة المذل المنتقم
بنشوفه سفاح بيقتل
ونشوفه شاعر هيان
فى دنيا الحنان والنقيل
تباركت يا رب ...
جعلت جميع الأوصاف فى واحد
والأرض والسموات فى ذرة
فى فرد ... فى إنسان بسيط من طين
وجعلت قلبه عرش ومرايه
لأسمائك وأوصافك وسرك المكنون

ونزلت على قلبه العلوم والرسالات والكتب والنبوات
والـــــنـــــذر والـــــبـــــشـــــايـــــر
وأجريت على أيديه الكرامات
وصـــنـــعت لـــه مسرح عـــجـــب
ســـبـــحـــانك الملك الـــقـــدوس
الصـــانـــع المبدع لـــكـــل بـــديـــع
ســـبـــحـــانك ... ســـبـــحـــانك

موسيقى لصوتية مختارة من عدة سيمفونيات دينية .
الملاك الراوى يقلب صفحات كتابه الكبير صفحة بعد صفحة ويطوى
صفحة بعد صفحة

ودارت الأيـــــام والـــــســـــنين
قـرُبـنـا على الآخـر يـا إخـوانى
داخـــلين ســـنـــة ألـــفـين
والـــعـــلـــم ع الأرض ذروة
والإنـســان بـلـغ غـايـتـه
لـكـن بـيـقـولوا يـا إخـوانـنـا
إنـه بـرغـم الـتـكـنـولـوجـيـا والـعـلـم
رجـع الإنـسـان لـعـصـر الـقـرود
مش عـــــــــارف إزاى

تعالوا نتفرج

يخرج الملاك للسكوبا رمزيا من جيبه وكذلك يفعل سرب الملائكة الجميع ينظرون بتلسكوباتهم إلى الأرض.

يظلم المسرح تدريجيًا ثم يضيء على المنظر الآتي:

الفندق رمزي، في مكان رمزي، نزلاؤه من كل الجنسيات التي تعرفها

المنظر الأول في غرفة الدكتور شاحت التي حولها إلى معمل كيميا وطبيعة وكهرباء وذرة... الغرفة مليئة بالأجهزة العجيبة، والدكتور شاحت يقف وسط الغرفة في قمة سيجارة يكتب بضع معادلات بالرموز على سبورة ثم يمسحها، ثم يعود فيكتب ثم يمسح... ثم يفكر... ثم ينادي على مدير الفندق

- صيو أحمد.. صيو أحمد.

(يدخل رجل أنيق في السن)

- أفندم.

- جيت الحمامات؟

- حمامات إيه...

- تراب اليورانيوم اللي قلت لك عليه من أسبوع.

- مفيش.... ما لقتش.

- مفيش إزاي... أعمال حاتعمل التجارب على إيه.. يا مقر ده إنت عندك جبل وراك مالوش آخر

- يا دكتور بقى لنا خمسة سنة بنحت في الجبل ده، شطبناه.. إنت ماسمعتش على أزمة الطاقة، مابنقراش جرايد.

- خد من الجبل التاني.

- ده مش بتاعنا وأصحابه رفعوا أسعاره . . يبيعوا القطار مليون جنيه .

- (يصفر بفمه) مليون جنيه . . . دول مجانين .

- مجانين ليه . إذا كان كيلو اللحمة بقى بتلاتين جنيه ، والفرخة بخمسين جنيه ، وطبق الحمير بستين جنيه ، وساندويتش الطعمية بعشرة جنيه ، والبدلة بألف جنيه

- أعوذ بالله أمال الفقير حايعيش إزاى . .

- فقير مين يا دكتور . . الفقير مات من زمان . . بص سكان الأرض ماتوا م الجوع الشهر اللى فات . . إنت مابتسمعش راديو

- فظيع . فظيع . . الأمل الوحيد اللى فاضل هو العلم . العلم الاختراع .

- علم مين يا دكتور . . هو ودانا فى داهية غير العلم بتاعك . زبالة المعمل اللى قلت لى أرميها فى البحر ورانا موتت السمك . وسائل الحشرات اللى اخترعت عشان الصراصير موت الصراصير والفيران اللى بتأكل الصراصير والقطط اللى بتأكل الفيران ما فضلش حاجة ندعها لكم ع الغدا .

- لكن موتنا الحشرات . . موتنا دودة القطن مش كده .

- وموتنا القطن كمان وحياتك . .

- لي

ك (ه د ت) بتاعك قتل الحشرات المضرة والحشرات

- وفيه حشرات مفيدة كمان يا مسيو أحمد؟

- أيوه يا مسيو شاخت اتضح إن فيه حشرات مفيدة بتأكل الميكروبات المهلكة اللي بتضر النباتات .. ولما قلنا الحشرات دي انتشرت الميكروبات المهلكة وكلت المحصول كله .

- لكن ظهرنا باقي المزروعات مش كده .

- للأسف .. وتركنا المواشي الطماطة تأكل المزروعات اللي عليها الـ (د . د . ت) بتاعك وتمرض وتموت ، واحنا كمان كلنا لحمها اللي فيه (د . د . ت) ومرضنا .. فضلت سلسلة السموم تلف وتدور لغاية ما حصلتنا . وظهر الـ (د . د . ت) بتاعك في لبن الأم المرضع .

- وعرفت ده كله منين يا مسيو أحمد .

- من التليفزيون يا دكتور .. ما بتفتحش تليفزيون .. دي حكاية بيقولوها كل يوم اسمها التلوث .. تلوث البيئة .. بعض تصلحوها من هنا يا علما .. وتخربوها من هنا .. جيتو تموتوا الصراصير موتوا اللي آدمين .

- لكن العلم .. العلم .. العلم هو الأمل .. هو الأخر حايصلح كل شيء .. العلم الألماني يا مسيو أحمد .

- والله ما جاب أجلنا إلا العلم الألماني ، والعلم للورستاني بتاعك .. كل علمكم في خدمة الحروب والهلاك والتدمير .

- إنت بتشك في العلم يا مسيو أحمد ..

- أنا أؤمن بالعلم يا مسيو شاخت ودينتا يأمر بالعلم - لكن العلم النافع مش العلم الضار . العلم عندنا هو علم باسم الله اقرأ باسم ربك . . العلم الجدير بالتعلم هو علم باسم الله علم للخير . إنما علم باسم الشيطان ، علم للتدمير . لأ .
- إنت راجل شرق رجعي متخلف يا مسيو أحمد ، يعم يا مسيو أحمد .
- طيب يا سيدى . خلى التقدم ينفعكوا . سلامو عليكو (يرفع يديه إلى السماء) . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع . ونفس لا تشبع ، وقلب لا يخشع . .
- (يصرخ) إنت رايح فين . أنا عاوز خامات . خامات . خامات يقول عايز خامات
- (في هدوء) والله بقى تنزل نجيبها بنفسك .
- مين . .
- من طابور الجمعية .
- إنت مش بتقول إن نص سكان الأرض ماتو من شهر .
- أيوه .
- يبقى لازم الخامات اللي فاضية حانكفيها وتزيد .
- الكلام ده لو تفاهمنا بعقل وإنسانية ودين . لكن يا خسارة الدماء اللى قتل نص السكان حايقتل النص التانى
- جوه إيه ؟؟
- الطمع يا مسيو شاخت . . الطمع - . والغرور . . وحب

السيطرة . والعلم الألمانى . والتفوق الأمريكى . والتقدم الروسى . وكل واحد يطلع يرأى عاوز يفرضه . وكل واحد عاوز يركب على التانى . وكل واحد بيقول أنا أنا . ونحن . وهى وهو . وهم . وهن . كله يضرب بعضه . ماحدش بيفكر إن فيه حقيقة كبيرة فوق ده كله .

- حقيقة إيه ؟

- إن فيه ربنا . وإنها مش تكية من غير بواب .

- مش فاهم !

- يعنى حضرتك مش لوحدك . ولا إحنا لوحدنا . إحنا فيه رب خلقنا ، وحاجاتنا ، وحالقف قدامه زى ما أنا واقف قدامك .

- إزاى يعنى مش فاهم !

- يعنى مش معقول تكون صدفة إن إحنا اتولدنا وفتحنا عينا لقينا جنبنا الميه سيالة . والهوا بيمروح . والفواكه جاهزة مستوية ع الشجر . والأكل فى الغيطان . وع الباب عودة بتغزل حرير . ونحلة بتعمل عسل . وبقرة بتحلب لبن . وشمس بتنور . وقمر بيضوى وبتزول مخزون فى الأرض . وكنوز حديد ونحاس وذهب إبريز تحت الطلب . مش معقول كل ده اترتب صدفه .

- ودى إيه دى . دى اسمها الطبيعة يا مسيو أحمد .

- ومين طبّع الطبيعة يا مسيو شاخت ومين طوعها لك ؟

- علمى .

- دى الحكاية موجودة ومتجهزة قبل ما تشغل مخك ، وقبل ما يتولد مخك يا مسيو شاخت جنتنى !

- إيه دى . يعنى إيه دى كمان .

- أما تفهم يعنى إيه دى . ابق نادينى . . سلام عليكم

(يخرج)

(يضىء نور أخضر فى مربع بالحائط عليه رقم ١٢ ونسمع صوتاً ينادى)

- مسيو أحمد . . مسيو أحمد .

- أيوه يا مستر باركر .

- أنا عاوزك فى الأوده حالاً

- حاضر .

(تظلم غرفة شاخت . ثم تضىء غرفة باركر . ونرى رجلاً مثل مدير بنك يجلس بين عدد من الخزائن الحديدية وراء شباك صرف . وأمامه أكوام من العملة . سبائك ذهبية . مجوهرات . أوراق عملة كبيرة ملصقة على جدران الغرفة مثل الأفيشات . أكبرها . ورقة بألف دولار)

أحمد : أيوه يا مستر باركر أى خدمة .

باركر : أزمة خطيرة يا مسيو أحمد . فيه أزمة خطيرة فى الوضع المالى للعالم .

أحمد : إنت دايماً كده شغلتك الأزمات . تورد أزمات وتصدر أزمات . . والله ما أنت جايبها الير يا مستر باركر

بركة : المرة دى الأزمة خطيرة يا سيد أحمد .

أحمد : خير اللهم اجعله خير .

- الفلوس حصل لها تضخم . تضخم تضخم عارف يعنى إيه تضخم ؟

- يعنى الفلوس كترت ورخصت .

- براڤو عليك . تكتر الفلوس فى إيدين الناس تنزل قيمتها ، يتزل الدولار . يرتفع الذهب ، تفلس البنوك تقفل المصانع . يتعطل العمال يرتبك كل شىء .

- للغيها .

- تلغى إيه .

- تلغى الفلوس .

- إيه ده . إنت راجل بدائى . أمال نتعامل إزاى . بالمقايضة . زى الزنوج . نعلق فى أديك موزة . !!؟

- ما دام الفلوس فقدت وظيفتها .

- إيه هى وظيفتها .

- وظيفة الفلوس إنها شيك فى مقابل عمل . القيمة الحقيقية هى قيمة العمل . الكد والكدح والعرق . هو الرصيد الحقيقى . والفلوس هى المقابل الورقى . دلوقت الفلوس فقدت وظيفتها بقت شيك بدون مقابل ، أى رأسمال ناجم فى بنك ممكن يولد من نفسه ملايين للبيه العواطلى اللى يسكر فى البار . يكسب له بدون ما يشتغل ، وفى المقابل فيه ملايين

من الفقرا يموتوا من الجوع والحرمان ، لأنهم يشتغلوا للبيه الغنى عشان يزودوا فلوسه الناية فى البنك .

- ايه ده يا مسيو أحمد إنت شيوعى واللا ايه

- لا أبدًا والله . أنا راجل مسلم .

- وعاوزنا نعمل ايه يا مسيو مسلم ؟

- نشوف الفلوس بتولد إزاى يا مستر باركر .

- بتولد بالحلال .

- أبدًا بالحرام وحياتك . بتولد ولادة غير شرعية بالربا والفوائد للأموال العاطلة الناية فى البنوك . والسلف الاستغلالية بفوائد باهظة للدول الفقيرة الى زى حالاتنا .

وعاوزنا نعمل إيه . . نديكو فلوس من غير فوائد .

- أيوه نلغى جميع الفوائد والعمليات الربوية ، ونخلى الفلوس

- تولد ولادة شرعية بالعمل والمجازفة فى المشروعات التعميرية .

وبعدين ؟

- وبعدين حا نزل جميع رءوس الأموال الناية فى البنوك وتحت البلاطة . تنزل فى السوق غصب عنها عشان تعمل مشروعات وتشغل الأيدى العاطلة وتكسب بالحلال . تكسب بالعرق . .

- والتضخم .

- مش حا يكون فيه تضخم . . هو التضخم سببه ايه . . سببه

- إن أنا يا مصنع يالل باستلف الفلوس بالربا والفوائد . .

عشان أرد الدين اللي بيتراكم عليّ أضعاف . لازم أرفع أسعاري أضعاف بدون داعي . ومن هنا تزيد العملة السايلة عن دواعيها وهو ده اللي بنسميه التضخم .

- ده اقتصاد جديد يا مسيو مسلم ؟

- ده اسمه الاقتصاد الإسلامي .

- إنت عاوز تخرب بيتنا يا مسيو مسلم .

- والله يا أخي إنت اللي خربت بيتنا ، وخربت العالم يا مستر باركر . روح الله يخرب بيتك بحق جاه النبي .

- بتقول إيه يا مسيو مسلم . مين بحق جاه النبي دي . . . مين النبي دي . . .

- النبي ده كان واحد ما عندوش فلوس ومات من غير ما يخوش فلوس .

- وده يبقى واحد دي

- ده يبقى نبي كبير يا مستر باركر مش واحد وبس . ده كان أمّة .

- وازاي يبقى نبي من غير فلوس ومن غير تكنولوجيا .

- يعلم حاله من عند ربنا

- آه . طيب وليه أمته كلها جهلة وشحاتين يا مسيو أحمد . ليه كلكم عواطلية وخدامين وعوالين وطباخين وزبالين ومساحين جزم يا مسيو أحمد . يطل يجيكو العلم من عند ربنا متاعكو .

- أيوه .. عشان مشينا وراكو وجبنو لنا الكافية ..
- والا علم ربنا بتاعكو طلع مش نافع .
- لو مشينا عليه كان نفعنا !. لما كنا بنعرف ربنا زمان يا مستر باركر هزمنا الفرس والروم ، وفتحنا الأندلس ، وعلمنا كم إزاى تعيشوا .
- ده كان زمان يا مسيو (كان) فعل ماضي تاريخ قديم أنتيكة متاحف .. آثار .. مدافن .. طول عمرك حاتقعد تبكي ع المدافن وتعيش فى المدافن .. اصحى بقى يا مسلم فتح عينك وشوف حالك .
- فتحت وصحيت ما شفتش حواليه إلا البلاوى .. أزمة الطاقة .. أزمة الأكل .. التلوث .. نص السكان بيموتوا م الجوع .. التضخم .. الفلوس أرخص م الورق المطبوعة عليه ، البترول أغلى م الويسكى .. الرغيف أغلى م الألماظ .. اهوا فيه غبار ذرى .. اليه فيها دود .. الناس بتاكل بعض .. مش هى دى الجنة بتاعتكو .. أعوذ بالله ألطف يا رب (يشير منصرفاً) تسمح لى أروح لحالى .
- إيه .. رايح فين؟
- رايح أغمض عينيه وأنام فى المدافن بتاعتى .. أرجع لعالم المتاحف والأنتيكات بتاعى
- والتضخم اللى لحنا فيه .. أنا طلبتك عشان التضخم .
- والله يا أخى أنا قلت لك على العلم اللى ربنا علمه لنا فى

حكاية التضخم دى .

- ربنا .. ربنا .. لكن أنا ما أعرفش ربنا .. أنا عاوز حد أعرف أكلمه ويكلمنى .. وأفهمه ويفهمنى .. إنما ربنا بتاعكو ده أنا مش فاهمه .

- أما نبقى نفهمه .. ابق اندهلى .. سلام عليكو .. إلهى ربنا يضخمكوا كمان وكمان ..

(يضىء نور أحمر فى مربع بالحائط عليه رقم ١٣ ونسمع صوتاً ينادى)

- مسيو أحمد .. مسيو أحمد .

أحمد : أيوه يا بروفيسور كليوف .

- أنا عاوزك فى الأوده حالا .

- حاضر .. جايلك (يكلم نفسه) دوختونا بين خدمة الغرب وخدمة الشرق .. امتى بقى يا رب حاتتوب علينا

(تظلم غرفة باركر ثم تضىء غرفة بروفيسور كليوف . نرى رجلاً فى السبعين يلبس فراء دب . وله لحية بيضاء أنيقة مدببة . غرفته مليئة بنماذج الأقمار الصناعية والصواريخ ، وسفن الفضاء . وأفيشات مالية على الحائط وصور الماريشا ليوبولا وبولا نوفا .

أحمد : أتقدم .

- عملت إيه فى طلبية القمح اللى قلت لك عليها الشهر اللى فات ؟

- كلوها أصحاب النصيب .

- إيه ..

- يقول كلوها أصحاب النصيب.
- إزاى ؟
- الباخرة انحطت فى المحيط الهادى ، نزل عليها الهنود كلوها . . سفوها كده من غير خبز ولا طحن ولا عجن .
- إزاى الكلام ده ؟
- أهو ده اللى حصل . . إنت عارف العالم فى حالة فوضى ومجاعة واضطراب ، ونقص فى جميع الموارد ، وانفجار سكانى . عشرة آلاف مليون بنى مفتوح . يعنى أربعة أضعاف الحجم السكانى القديم ، ورغم موت نص السكان الشهر اللى فات ، فإن الباقى ما زالوا ضعف السكان زمان . والجوع كافر .
- بكره الموت يلاقى نص الموجودين الشهر الجاى ونعيش بعد كده مرتاحين .
- أيدًا حتى لو نصف صرهم جمعًا وفضل اتنين بس حايقتلوا بعض . . المشكلة مش مشكلة موارد يا بروفيسور . . المشكلة فى العقلية اللى بتدير الموارد . . فكرة الصراع . . . صراع الأنا والأنت وصراع الطبقة والطبقة ، وصراع الدولة والدولة .
- ودى فيها إيه يا مستر أحمد ؟ ده اسمه الصراع الطبقى . . . ده كله خير . . الصراع الطبقى هو ديناميو التقدم هو اللى بيحرك التاريخ للقدام .
- الكلام ده فى كتبكم . . لكن فى الواقع والحقيقة وعلى

خريطة الأرض والبشر أديك شايف الصراع عمل إيه .

- عشان الطبقة صاحبة المصلحة ما أخدتش الحكم . . لو أن البروليتاريا أخذت الحكم كان انصلح الحال . حكم العمال هو التقدم يا مسيو يا رجعى .

- العمال فى بولندا رفضوكو ورفضوا نظامكو يا مسيو يا تقدمى وعلقوا صورة البابا والعذرة مريم والعمال عندكو خدوا الحكم ولا انصلحش الحال وبتشتروا القمح من الدول الرجعية ، مع أن عندكم أكبر مزارع القمح فى العالم فى أكرانيا ، وعندكو التكنولوجيا والعلم والعمال والفلاحين ، وكله بيشتغل بالصرمة القديمة . . ليه الإنتاج هابط وبتطلبوا الرغيف من بلاد الرجعية . .

- فيه عوامل متداخلة إنت ما تفهمهاش . . إنت راجل بورجوازى مغفل عايش فى الغيبيات شرقى . . حمار . . الاستعمار غسل مخك والإمبريالية عملت منك عميل .

- ما عنديش مانع تغسل لى مخى إنت كمان وتاخده فُمّ وتنضفه وتشغلنى عميل عندك . . بس فهمنى . . اقنعنى الله يكرمك .

- إحنا طلعنا القمر . .

- ومش قادرين تطلعوا م المطب البسيط ده .

- مطب إيه وبتاع إيه . . دى حكاية بسيطة اسمها البيروقراطية . .

- عندنا وحياتك وعارفينها فى الجمعية قدام بيتنا . . ومعناها

ببساطة إن العامل والموظف مش عاوز يشتغل مع أن الدولة دولته والنظام نظامه . . . الكل قرفان من عيشته . . ليه . . لازم فيه شيء ناقص . .

- بنقول لك فيه عوامل متداخلة . .

- هى إيه . . ليه ما تتكلمش بصراحة وتقول إيه اللي ناقص . . العالم كله بيموت . . تفهم الحقيقة قبل ما تموت عشان تموت بشرف تبقى اسمنا ع الأقل حاربنا باقتناع .

- صراع المبادئ يا مسيو أحمد ده اسمه صراع المبادئ .

- أبدًا . . كذابين . . مفيش مبادئ . . الشيوعى بيقتل الشيوعى فى كمبوديا . . والماركسى بيقتل الماركسى فى فيتنام والصين ، والمسيحى بيقتل المسيحى فى أيرلندا . . والبعثى بيقتل البعثى فى سوريا والعراق . . والقومى العربى بيقتل القومى العربى فى كل مكان . . كذب . . مفيش غير شهوة القتل والسلطة صدقنى يا بروفيسور كليوف جميع النظم فاسدة فى الشرق والغرب ، لأنها قايمة ع الحسابات المادية وحدها ، على المصالح المادية والأرقام ، وعلى الواقع المادى وحده ، لكن الإنسان مش جسد بس . . وفى السويد منتهى الرخاء المادى والحرية المادية والجنس بلاكبت ، لكن تلاقى أعلى معدلات الجنون والانتحار . . ليه . . لأن البطن شبعت والغرائز شبعت لكن الروح عطشانة والفطرة مشوهة .

- ليه ؟

- لأن الحياة خلت من فكرة الله والخلود والعدل المطلق . . وأصبحت مسطحة . . أصبحت مجرد أكل وشرب وجنس . . وبطن التراب .
- ما هي كده بصحيح يا مسيو رجعي .
- أبدًا هي مش كده يا مسيو تقدمي . . ويوم ما حاتبقى كده الواحد حاتحبس بالملل والسخف والضجر . . وحايتجنن فعلاً أو يتحر .
- أو يشرب خمرة .
- بالضبط . .
- ومن حسن الحظ أن الخمرة أرخص حاجة اليومين دول .
- لأن كل شيء حُمُضٌ ، كل شيء بقى حَمْضان يا بروفيسور كليوف ، والعالم كله بقى حَمْضان . .
- إنت اللي راجل درويش تحك حَمْضان يا مسيو أحمد . . تحك حُمُضٌ من قراية الكلام الفارغ اللي بتقراه . . أنا حاديك تذكرة تروح البالية بكره تداوي الحَمَضان اللي في تحك . . إنت شفت يولا توفا البالرينا الجميلة
- شيء جميل فعلاً . . رائع .
- فراشة . . مَلَك . . نسمة حلوة وسط الحياة المادية اللي بتقول عليها . . صديقي المسرح عندنا بيقوم بدور المعبد .
- معنديش مانع بس يدلني على ربنا . .
- ربنا مين . . ماتوهنيش في كلمات هرايوق ، خدلي من

إيدى وربى ربنا ياعك وأنا آمن معاك .

- إنت مش قادر تشوف الإلكترون وهو أتفه شىء ، حاتشوف ربنا وهو أعظم شىء .. بالكتير آخر ما توصل له إنك حاتشوف بيولاتوفا . الفراشة . السلك . السمكة الحلوة .. على أنغام رمسكى كورسا كوف وطبق كافيار وكاس فودكا .

- مدهش . . وفيه أحلى من كده .

- فيه . .

- فيه إيه يا مسيو أحمد ؟

- الجنة .

- خليها لك والحقنى أنا بطبق الكافيار قوام أنا ف عرضك .

- وصل ثمنه لألف جنيه وحياتك ف أزمة الأكل الراهنة .

- شفت . . يا خسارة . . بق دلوقت أبعد م الجنة .

- وبكره حايبق أبعد م الطلوع للقمر . السمك اللى بيطلعوا منه الكافيار مات كله فى البحر بسبب التلوث .

- فعلاً . . إحنا رايحين لكارثة . .

(يضىء نور بتضجى فى مربع بالخلط عليه رقم ١٤ ونسمع صوتاً ينادى)

- مسيو أحمد . . مسيو أحمد . .

- أيوه يا مسيو أرسطو فولبس . . آنا عارف . . لازم ناوى تصلحنى زى كل يوم . . ما هو مفيش وراك إلا الجدل وتصديع الراس .

- سير أحمد.

- أفندم . . حاضر . تحت أمرك . . أنا عارف ربنا خلقك علشان تعذبنا . .

(تطفئ غرفة أرسطوفوليس ويرى أحمد داخلاً)

أرسطوفوليس ومنين عرفت إن ربنا خلقني . . وإذا كان ربنا خلقني يبقى مين خلق ربنا .

- أعوذ بالله . . حا نرجع للدوشة تاني . ما هو يا سير أرسطوفوليس لو كان ربنا حا يحتاج لخالق يخلقه ما كانش بقى ربنا ولاكنا سميناه خالق . .

- يعنى إيه . .

- يعنى بقول عليه لمْ يلدْ ولَمْ يُولد .

- ليه . . فهمنى . . إثبت لى . برهن لى . .

- يا رب لطفك . يا رب خلسك . حاقول إيه للراجل أبو عقل خشابى ده . . يا أستاذنا مش معقول الخالق حايخضع لقوانين مخلوقاته .

- اقعنى بالجدل والمنطق . . أنا راجل بتاع منطق .

- يعنى مش معقول ربنا حا يخلق الزمان والمكان والميلاد والموت . . وبعد هو كمان خاضع للمكان والزمان والميلاد والموت . لازم حايكون فوق القوانين اللى خلقها .

- أهى حكاية فوق دى هى كل المشكلة اللى معذباني . . تفتكر إن فيه حاجة فوق . إنت متأكد إن فيه حاجة فوق .

- ما دام فى تحت بيق لازم فيه فوق يا مسيو أرسطوفوليس .
- بيعجبنى عقلك الهندسى ده . . فعلاً مش عجيبة إن المسطرة والبرجل والمنقلة والزولة طلعت من عندكم يا عرب .
- والحساب كمان والكسور العشرية والقلك والتشريح والمزيكة والتواشيح .
- لكن الفلسفة طلعت من عندنا إحنا من أثينا .
- الله يبارك فيكم وفى فلسفتكم : خلت الحيرة حيرتين والسؤال سؤالين والسؤالين ألف وما جاوبتش على أى حاجة . . عكرت البحر وما اصطادتش سمكاية واحدة . . ماطلعتناش بأى جواب شاف
- مش لازم تلاقى جواب . . المهم تفكر . . تفكر .
- فكر زى ما انت عاوز بس اطلع لى بفايدة . . اطلع لى بنتيجة . .
- الفايدة . الفايدة . الفايدة . . إنت زى البهيم اللى ما يهموش إلا البرسيم .
- وهو حد لاقى برسيم دلوقت . ده عود البرسيم بخمسة جنيه .
- الفايدة الأكيدة إن مفيش فايدة . . والكل أخرته الموت والتراب والخسة خسرانة . . والنتيجة صفر .
- إنت بقيت هبى يا مسيو أرسطوفوليس وإلا إيه .
- أنا أصلى دايماً بفكر على آخر موضة .
- إنت متأكد إن النتيجة صفر .

- مفيش حد رجع بعد الموت بقولنا . وربنا ما نزلش على وحي .

- ومعقول ربنا حايكلم الى زيك .

- ولية لأ . . مش هو رحيم غفار وكله محبة .

- ما انت قطعت الحبل اللى بينك وبينه . . قطعت سلك التليفون . حا تسمعه إزاى . . ما فضلكش إلا شيطانك تحاوره وتحاورك . .

- وكان بتصدق إن فيه شيطان .

- زى ما فيه ميكروب إنت مش شايفه يبقى ممكن يكون فيه شيطان إنت مش شايفه

- ممكن شيء ومؤكد شيء تاني . إنت بتكلم عن احتمال . ومطلوب منك إنك ترفع الاحتمال إلى ترجيح ، ثم ترفع الرجحان إلى توكيد ، عشان يبقى كلامك علمي مش كلام دراويش مغفلين .

- الله يسامحك .

- مفيش شيطان ولا حاجة يا عرفي يا عبيط . . الشيطان هو الشماعة اللى بنعلق عليها عيوبنا . الشيطان الحقيقي هو إنت وأنا . .

- هو أنت فعلاً . . صدقت ل الكلمة دى .

- قصدك إيه .

- قصدى شوف اللى تشوفه وصدق اللى تصدقه . . واعتقني

لوجه الله . وجعت لى دماغى . . سلام عليكم .

- إيه إنت رايح فين يا عرفى يا مخبول .

- يا راجل سيبنى فى حالى الله يهديك .

- برهن لى أولاً بالمنطق على حكاية الشيطان بتاعك ده . واثبت لى بالمسطرة والبرجل إن فيه شيطان . وهات لى شيطان صغير أتفرج عليه . كلمنى مرة واحدة كلام علمى . اعمل لى تجربة . أنا راجل تجريبى . حُطّ لى حل على زعفرا على كبريت وطلع لى شيطان أو مسحوق شيطان . أنا راجل علمى . أنا عاوز معامل وتجارب !

- يا سيدى خليك على أدّ علمك . وخلينى على أدّ علمى واعتقنى . . ارحمنى . الله يرحمك .

- أنا عاوز منطق . عاوز حيثيات . عاوز استدلالات . . عاوز مقدمات ونتائج . . عاوز إثباتات . . عاوز وقائع شيطانية صريحة .

- (يصرخ) وهى فيه وقائع شيطانية أصرح م اللى احنا فيه . . يا راجل بص حواليك واعتبر (يفلت من قبضته) يا هوه . . يا لطيف . . يا حفيظ احفظنا . .

- عرقى صيط محلول بياع مسبح وشخاشيخ .

(يضيء نور أزرق فى مربع بالحائط ونسمع ميكروفون يقول) :

- من فضلكو . جميع نزلاء الفندق مدعوون للاجتماع بالقاعة الكبرى فوراً للأهمية . الرجاء عدم التأخير .

(يظلم المسرح . . ثم يضاء شيئاً فشيئاً فنرى صالة كبرى ونرى نزلاء الفندق قادمين من الأبواب الخلفية . مستر شفخت . مستر باركر . بروفيسور كلينوف . والأستاذ باكونين والزنجى العربان بوجودوجو والشيطان مفستو ومسيو أحمد المزودوتيل ورجل يابانى ورجل صينى ورجل آخر فى ثياب هندية والإمبراطور بوكاسا والملكة مريام فى ملابس إفريقية) .

مستر باركر هتف متكلماً :

- فى الواقع أنتم مدعوين النهاردة للتفكير فى وضع العالم الدقيق . . العالم يا جماعة على حافة كارثة وممكن ينتهى بين يوم والتانى ، ونبقى كلنا تاريخ وآثار وحفريات ، وإحنا عاوزين نفكر كلنا ، ونحاول نشوف مخرج . . نحاول نشوف حل . . وكل واحد يقول لنا نعمل إيه ، وطبعاً انتو عارفين المشكلة . . الانفجار السكانى تجاوز حدود الموارد المتاحة ، وفيه أزمة أكل وأزمة طاقة . . وتلوث البيئة أتلف الثروة الحيوانية والنباتية . . ويبهدد الإنسان نفسه بالهلاك . . والتضخم جعل العملة بدون قيمة ، والمجاعات بتنفجر فى كل مكان ، وأمراض وأوبئة من أنواع جديدة بتواجهنا لأول مرة ومش عارفين نعمل إيه .

(بروفيسور كلينوف . يضع فى فمه سيجارًا ويشعله قائلاً فى هدوء) :

- أنا ما زلت مصرًا على رأيى أن جميع المشاكل والتناقضات حاتنتهى إذا حكمت الطبقة العاملة صاحبة المصلحة . جه اليوم اللى نقول فيه . . يا عمال العالم اتحدوا لتحكموا وتقودوا التاريخ . .

(الأستاذ باكونين يرفع أصبعه)

باركر : الأستاذ باكونين . . اتفضل .

باكونين : بالعكس جه الوقت اللى نحل فيه جميع الحكومات ، ونحرر الإنسان من جميع أجهزة القمع والضغط ، ومن جميع الهياكل الفوقية . . جه اليوم اللى نقول فيه :

ياجميع النظم ثبت إفلاسك . .

ياكل الحكام خربتو بيتنا . . . نطالبكم بالتنحى .

يا كل القوانين . . ثبت عدم صلاحيتك .

لتنتهى كل القوانين وكل الضوابط ، وكل النظم ، وكل الهياكل السياسية . . وليفعل كل إنسان ما يحلو له .

باركر : دى تبقى اسمها الفوضى .

باكونين : بالضبط . . نجرب الفوضى مرة ما دام النظام فشل . . أنا فوضوى وأطالب بالفوضوية الكاملة . .

أحمد : معناها نعالج انتشار السرقة بإشاعة القتل . . أنا أفهم إن إحنا نعالج نظام فاشل بنظام ناجح . . أما الفوضى لأ . . لأن الفوضى هى الظلم المستمر الشامل .

شاحت : فعلاً أى شىء أفضل من الفوضى . . والفشل الحالى بكل مساوئه أفضل من الفوضى . . يا مسيو باكونين أنت . . بتخرف .

باركر : كلمة مندوب الصين .

الرجل الصينى : (يدخن من بايب طويل ويقول فى هدوء) :

- اسمحوا لى أقول لكم المشكلة فى الحقيقة ما تهمناش كتير فى الصين . . إحنا كنا ٧٠٠ مليون بقينا دلوقت ٣٠٠٠ مليون يعنى عندنا احتياطى كبير أوى . ماعندناش خوف م الاقتراض . . جميع الكوارث اللى بتحكو عنها ، والأوبئة والمجاعات مجرد زكام عابر بالنسبة لنا ، إحنا هزمنا كل المشاكل بالطاقة البشرية والإنتاج . . لو دخل الموت عندنا حاملا حقائه من بحر . . سيدانى سادتى . . مفيش فى الصين مشاكل . .

(يجلس فى هدوء ويعود إلى تدخين البايب الطويل)

(يقف الدكتور شاعت) :

شاعت : (فى انفعال) أنا مازلت بقول إن العلم هو الأمل ، العلم ممكن يحول التراب إلى فراخ ، ويطلع من الحجر طاقة تنور مدينة ، ويزرع الصحارى ويستنبت أغذية جديدة من قاع المحيطات .

بازكر : إمتى . .

شاعت : ادونى إمكانيات وأنا أعمل لكم معجزة .

كلينوف : إدوله كل الإمكانيات اللى عايزها .

بازكر : نديك كل الإمكانيات اللى عايزها . . نعتمد لك فورًا ألف مليون دولار من الكونجرس . . .

كلينوف : ابدينا معاك شد حيلك .

الزنجى بوجودوجو: يا سادة مفيش أمل طول ما بتقسموا الناس فى بلادكو لسود وبيض ، وطول مافيه شوارع للسود وشوارع للبيض ،

ومدارس للسود ومدارس للبيض .

الإمبراطور بوكاسا : يا سادة مفيش أمل طول ما أنا معزول ، ومفيش حد بيسمع كلامى ، أنا بوكاسا إمبراطور العالم وسيد الكون المطاع .

(تقف الملكة الإفريقية ميريام طويلة مهيبة عراقية مثل بلقيس ملكة سبأ . . تلتفت إليها الأنظار) .

باركر : صاحبة الجلالة ميريام ملكة دولة موجامبو الإفريقية .

ميريام : ده كلام قديم جدًا . كل واحد بيقول نفس الكلام دايمًا . . ماحدش عاوز يقابل التانى فى نص الطريق . ماحدش عاوز يقلع جلده . . كل واحد فيكم بيكلم نفسه من غير ما يحاول ، يسمع التانى . . مفيش جسور مشتركة بيننا . . المشكلة خطيرة . . إحنا فى بلادنا لما بيستفحل الداء بنستدعى الحكماء ، وإحنا معانا النهاردة حكيم الحكماء فى كل العصور .

(تسلط الأضواء على عمق القاعة فى نفس اللحظة التى تختم فيها عبارتها ويدخل جواما نوح فى هالة الضوء شامخ الطول عجوز مهيب . . جليل وقور تتدلى لحيته البيضاء إلى ركبتيه) .

ميريام : جواما نوح شيخ الحكماء . عمره ٢٠٠٠ سنة عاش جميع العصور ، وحضر كل أحداث التاريخ ، وعرف حكمة الأزل . . وشرب من بحار الأسرار .

(الأعناق تشرئب إلى هذا الزائر الخرافى)

نوح : السلام عليكم يا أولادى .

باركر : والله يا سيدنا جوما نوح أنت جيت فى وقتك إلحقنا . . .

إخلدنا جميع الشركات والمصانع الأمريكية تحت تصرفك . جميع خبراء صناعة المراكب والبواخر رهن أمرك أرجوك طلعنا م الأرض الجهوية دى ، خلدنا معاك فى مركبك .

نوح - (فى هدوء جليل) مركبك نفسك إذا ركبت نفسك نجوت ، وإذا ركبتك نفسك هلكت .

باركر دى ألغاز دى ؟

نوح فى الأرض ما يكفى لحاجات كل الناس ، ولكن ليس فيها ما يكفى أطماعهم .

شالمت دى معادلات صعبة أوى .

نوح أنتم ضيوف على هذا الكوكب . كل منكم زائر عابر . وحظكم فى الدنيا عبور قصير ، أنتم مدعوون دعاكم الله لقضاء يوم فى مملكته . هل يطمع الضيف فى أكثر من ضيافة طيبة هل يشغل عابر السبيل نفسه بتكديس الممتلكات على كاهله . أو يمشى خفيفاً كالفراشة فى حدائق الله حسب كل واحد أن يمتلك ثوبه ودابته ولقمته وسوف تكفينا الأرض وزيادة .

لا تهللوا لمواكب العظماء ، فالعظيم هو من حكم نفسه لا من حكم غيره .

لا تهللوا لمن يكسب أكثر ، فما قيمة هذا الذى يكسب ذهب الأرض ويخسر نفسه .

باركر - شيوعية دى ياسيدنا والا ايه ؟

نوح - لا .. نظامنا ينبع من أنفسنا محبة وتطوعاً ولا يأتى بالقهر والغصب من خارجنا .. لسنا إخواناً بأمر الحاكم ، وسلطة البوليس ، وإنما نحن إخوة باختيار نفوسنا الطيبة .

شاحت - إحنا عايزين المركب ياسيدنا .. ماتخرجش عن الموضوع .

نوح - مركبك إلى الله هى سجادة صلاتك . بقعة الأمان الوحيدة فى هذه الأرض الخراب هى سجادة الصلاة .

أحمد - بوركت ياسيدنا .. كلماتك ذهب .

كليوف - الراجل حرّف ، صلاة إيه وبتاع إيه .

شاحت - ده عنده تصلب شرايين .. ٢٠٠٠ سنة تخلى المخ خشب .. معذور يا إخوانا .

نوح - من يريد النجاة فليحمل سجادته ويتبعنى .

أحمد - إيدى على إيدك ياسيدنا .. أنا وراك لآخر الدنيا .

باركر - إنت رايح فين يا مسيو أحمد . ده راجل مجنون حاسب الأوتيل لحين .

أحمد - أنا مستقيل م الأوتيل شوف لك مدير غيرى يدير الخرابة بتاعتك .. سلامو عليكم .

(خرج نوح وأحمد يد كل منهما على كتف الآخر فى تضامن أخوى حنون . وقد حمل أحمد سجادته على كتفه)

كليوف - ده راجل هربان م الخانكة أراهنكو .

باركر - فعلاً دى حالة معروفة فى كتب السيكولوجى اسمها فوبيا دينية .

شاعت : فعلاً أنا كنت أعرف واحد فى مستشفى المجاذيب مركب دقن ويقول إنه سيدنا نوح .

باركر : هو بعينه وحياتك .

كليوف : هو عين .

باركر : اللى يدور عليه فى رواية نوح اللى حاتجيها للسينما ، هو الوحيد اللى ينفع للدور .

(باركر يتجه بكل أدب للملكة مريام) .

باركر : يا مدام مريام . . آسف قصدى يا صاحبة الجلالة تسمحى جلالتك . ممكن جلالتك . . أنا محتاج للحكيم بتاعك . شهر واحد أستلفه منك . شهر واحد وأرجعه لسموك سليم محنط زى ما هو والله ، وفوقه مليون دولار بقشيش . يا مدام مفيش حد غيره حاينفع فى روايتى . (سرك المجاذيب) أرجوكى يا مدام . . . أبوس إيدك .

(الملكة مريام تهب واقفة فى كبرياء غاضب) :

مريام : الظاهر إنه مفيش فايدة فيكم . الظاهر إن العالم انتهى فعلاً ، ومالوش حل . وماعادش لى مكان إلا مع حكيم الحكماء .

(تنصرف غاضبة دون كلمة) .

كليوف : (يتململ) ويعلبن .

باركر : مافصلش إلا الحل يتاع كل يوم .

شاعت : حل إيه .

باركر : إن إحنا نشرب ونرقص ونأجل الهموم ليكرة .

كليوف : براحو عليك . كلام عملى . عقلية واقعية مية فى المية .

باركر : (ينادى بصوت عالى) هاى . فرانسوا . سباجتى . فلورا . ميراندا . بولاندا . قبليلى .

(تدخل الفرقة الراقصة فى ملابس نصف عارية فى موجة من الموسيقى)

شانت : أنا حانسحب للمعمل بتاعى .

أنا راجل جد مش بتاع الحاجات دى .

(يخرج شانت مسرعا)

(فلورا ترقص رقصة خليعة فيها تعبيرات حب وجنس وخمر ومرح . تصفيق وتهليل . قبلة بينها وبين الراقص فرنسوا فى ذروة الرقصة . ثم تراها تمر على الجالسين فتقبلهم فى مرح) .

(تجلس على ركبتى باركر يدللها وتدلله) .

باركر : بقعة الأمان الوحيدة فى هذه الأرض الخراب هى شفتى فلورا (يقبلها) .

(تصفيق تهليل تهريج) .

(تجرى إلى كليوف تعانقه) .

كليوف : مرعاً السلام الوحيد فى الدنيا هو حضن فلورا .

(تصفيق وتهريج) .

الإمبراطور بوكاسا : (يشير إلى ساقى فلورا) متعة الحياة الوحيدة هى اثنين كيلو لحمه صافى من هنا . . إمبراطورية بوكاسا مش ممكن تعيش من غير حمام وغزلان للثلاجة الإمبراطورية

(تتشنج ساقه لترقص رقصة الحجل حول النار وحول فلورا) - (يهتف)

أنا الإمبراطور بوكاسا صاحب الحق الإلهى فى أن يأكل ويقتل ويفعل ما يشاء . . (يصرخ) هايل ماريام . . هايل منجستو

(تقدم له كؤوس دم فيشربها)

(تصفيق تهريج) .

(ساجق البهلوان الإيطالى يرقص رقصات بهلوانية بضع عدة سلالم فوق بعضها بسرعة ليصعد إلى القصر ثم يتدحرج واقعًا) .

(ضحك . مرح . شرب) .

(مسرحية سيرك قصيرة عن العرش العالى . أو الكرسى العالى الذى يتسلق عليه الأقوياء . ويقلب الواحد منهم الآخر ويخلس مكانه . وكيف يصعد كل واحد على أكتاف الآخرين حتى يصل إلى فوق ثم يدفع بهم فيتكورون فى كومة من اللحم على الأرض) .

(الكل يتقارعون الكؤوس وقد نسوا أنفسهم تمامًا) .

يدخل المسرح عدد من الخيول المدربة . تجرى فى دائرة . ثم فيل يسوقه كلب

(أبطال السيرك يغنون)

العب واكسب

العب واكسب

القرش يألف

والعالم أذ الكف

والكلب يسوق الفيل

والعالم سيرك كبير

والشاطر يكسب

والشاطر يكسب
والشاطر يركب
والشاطر حايمشى الكون

كليوف (يقوم سكرانًا) عندك وقت .. انا حاركب .

باركر (معترضًا) لا أبدًا ممنوع أنا سيدك . أنا أول من يركب .

الرجل الغنى (مقدمًا) ولا انت ولا هو . اليوم يومى والدور دورى وأنا حاركب . . بالذوق أنا حاركب بالقوة أنا حاركب .

(يتشابك الثلاثة ويتماسكون بالأيدى) .

باركر ابعد عنى أحسن لك . . ده أنا عندى فيلة ذرية تخلى بلدكو كنافة .

كليوف (يضحك ساخرًا) وأنا عندى صاروخ حايخلى بلدكو قرافة

(مقسو - الرجل الشيطانى الانتهازى فى حبث يكلم نفسه وقد انحنى جانباً)

- أيوه جدع إديله كمان . حرب . دمر . ولع . .
شغلل خل العالم بركان
عُضّ ياواد فى اخواتك عُضّ
اتخانقوا . اتخانقوا . . واقتلوا بعض
وأنا فى الآخر .
حاورث وحدى كل الأرض
وآكل الأكلة بكل لطافة
وأنا سيد مين يركب
على ضهر الموجة العوجة

ويعوم فى المية السيالة

ها أو أو .. أو .. أو .. أو

الرجل الأفريق وأنا فين بين الأكالة .

الابطالى ساجى إنت الغدوة والعشوة يا بو ريالة

(المجموعة تغنى)

العب واكسب

العب واكسب

القرش بألف

والعالم أد الكف

والكلب يسوق الفيل

والعالم سيرك كبير

والشاطر يكسب

والشاطر يكسب

والشاطر يركب

والشاطر حايشى الكون

(مجموعة تشرب على مائدة) .

(رجل متشى واخر مهزوم وحوضها اخرون) .

النشوان يا خمرة يا ملهمة يا عصير النفوس .

المهزوم يا خمرة يا مجرمة يا طاحونة فلوس .

النشوان بتورى المخ زى الفانوس .

المهزوم وبتاكلى فى الجتة زى السوس .

الشوان : يا خمرة .. يا دم جو الكؤوس .

المهزوم : مين اللى باعك . يا ساعة ناقصة النوس بتوقف العمر قبل الأوان .

آخرون : يا ساقى . هات الشهد ... هات الشراب .

آخرون : هات السبرتو . ولع الأعصاب .

المهزوم : هات العذاب . أنا جاى أبيع الذهب بسعر التراب . وأبيع ستين الشباب من غير ثمن .

آخرون : (يصفقون) يا ساقى .. هات .. هات .

(فجأة نسمع صوت شاعت قادمًا وهو يصيح أوريكا . أوريكا . وجدتها كما قال أرشميدس) .

(يدخل وقد طفح الفرح على وجهه) .

- وجدتها . وجدتها .. وجدتها .. وجدتها .

باركر : ايه .. ايه .. وجدت ايه .

شاعت : (فى حماس) الحل .. إنقاذ العالم ، المعادلة الجديدة للطاقة ٢ كب + ط ٤ = ١٣ ع م ش ص ض تربيع .

كينوف : ايه ده .

شاعت : المعادلة الجديدة اللى حانطلع بيها الطاقة من التراب . وتحول مية المجارى لفراخ خلاص مش عاوزين بترول . عندنا دلوقت طاقة جديدة ممكن تحول التراب لذهب . تحول مية البحر لشعلة نار تعمل من المخلفات المرمية بروتينات غذائية .. انتهت المشاكل .. العلم الألمانى صنع المعجزة ..

بازكر : إيه ده . . إنت بتتكلم جد .

- تعالوا معايا المعمل شوفوا بعنيكم .

(يهرول الكل خلفه) .

(تظلم القاعة تدريجيا) .

(تضيء غرفة الدكتور شاخت . نرى كل الموجودين متزاحمين ليشاهدوا التجربة المثيرة .

الدكتور شاخت يوصل عدة أسلاك كهربائية ويضبط عدادات وأجهزة ثم يضع يده على مفتاح تحويلة) .

شاخت : ده جهاز إلكتروني أنا وضعت فيه حفنة تراب . ودلوقت حابدأ العد التنازلي وحاتشوفوا التراب يتحول لطاقة والحديد يبقى ذهب بمجرد ما أوصل التحويلة .

(لحظة الصفر يضغط الدكتور شاخت على مفتاح التحويلة)

(يحدث انفجار مروع) .

(تندلع فجأة عدة شرارات في المعمل ثم يبدأ في الاحتراق تماماً . الدخان يغطي على كل شيء . نسمع صرخات . ثم صمت كامل) .

(حينما يبدأ الدخان في الانقشاع . نرى نوح وأحمد والملكة مريام والفهد وسط جثث القتل والأنقاض)

نوح : انتهى النصف الباقي من سكان الأرض . . انتهت دنيا الباطل

(الاثنان في صوت واحد) :

لا إله إلا الله .

(إظلام تام كامل ثم عودة إلى السماوات الزرقاء والملاك الراوية يغلق الكتاب

مسبحًا ومن حوله الملائكة يسبحون .. مع موسيقى علوية عالية فى الصفاء)

لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله .

(كورس وأصوات متداخلة وموسيقى هارمونية) :

لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله ..

(ختام)

سُكر وَلَمُونُ

عيبى الوحيد يا سادة يا كرام هو غرامى بالتسجيل ووضع أجهزة التصنط والتسمع . وأشهد أمام الله أن هدفى برى، ولا علاقة له باضرار الناس . أو ابلاغ السلطات . وإنما أفعل هذا لأغراض غير بوليسية . ولأهداف بريئة تماماً هى جمع مادة علمية . والقيام باحصاءات دقيقة . ودراسات عميقة . فى مسألة السعادة الزوجية والحب والعلاقات الإنسانية . واستنباط قوانين التطور والتقدم . ورصد حركة المجتمع فى سيره من أيام العربة الكارو إلى عصر الذرة والصاروخ .

وفيما يلى تسجيل واقعى أمين لمجموعة لحظات تروى قصة الحب والزواج بين اثنين على مدى عشرين سنة من العمر السعيد المديد .

واترك الكلام لجهاز التسجيل .

المشهد الأول

(ركن منعزل فى كازينو بشارع الهرم تحت أباجورة حمراء.
من الميكروفون المعلق فى أغصان الشجر تسيل فى عذوبة موسيقى هوى القمر لشوبان.
على المائدة عميل شيخان لشاب وفتاة فى صبوة العمر الحدان متلاصقان الأنامل متشابكة. والأقدام متعانقة. الكلام همس
الفتى فى يده كوب من الليمون)

هى : ماشربتش ليه .. أحط لك سكر

هو : إنتى سكر .. دوق فى حته من شفايفك يا سكر

هى : نصحى أدوب لك عمرى كله

هو : وأشربك

هى : شفطة شفطة

هو : تمشى فى عروقى فى دمى فى جسمى فى روحى

هى : نبقى واحد

هو : ما نعرفش مين هو مين

هى : زى السكر والليمون فى الكباية ماحدش يقدر يفرقهم

هو : ولا النار تقدر تفرقهم

هى : أنا مش مصدقة

هو : ايه

هى : واحشنى وانت قصاد عينى .

هو : لما حانتجوز حانقفل علينا الأوده . طول الليل والنهار .

هى : طول الستة .

هو : وناكل ازاى .

هى : ناكل بعض .

هو : اكلك من شفايفك . كده .

هى : باى .

(قبلة طويلة ثم حالة إغماء على موسيقى شوبان)

المشهد الثانى

(فى بيت الزوجية بعد ثلاث سنوات من المشهد الأول فى بلكونة تطل على النيل .

الزوجة ترضع طفلاً . الرجل يقرأ فى جريدة .

على المائدة سكر ولمون وماء مثلج)

هو : هاتى لنا مية من الحنفية . المية باردة أوى . بتعمل لى النهاب فى الزور أنا عندى لوز .

هى : أنا قمت وقعدت عشرين مرة . مرة لمون مرة سكر ، مرة كباية ، مرة دورق مرة تلج ، مرة بلاش تلج ، مرة المية ساقعة ، مرة المية سخنة . مرة نزلت اللوز . مرة طلعت اللوز . أنا اللى طلعت روحى . إنت فاكرنى إيه . مركبة زمبلك . مش شايف الناهية اللى فى إيدى . إنت ما عندكش دم . إنت

ماعندكش إحساس . . ماعندكش ذوق .

هو (يبلع له معمول على مثل تلك الروايع) يا ستى دى حكاية كانت ممكن تجهز كلها مرة واحدة . فيه لمون من غير سكر وتلج ومية ودورق وكيايات ١٢ ليه الحاجة تبقى ناقصة وأنا اللى انشتم كل مرة .

هى : وانت مش بنى آدم زيى . لك ايدين ورجلين ما تقدر تحمك شوية وتخدم نفسك .

هو أنا لسه جاى من الشغل مش قادر أتحرك .

هى (تضع الطفلة فى حجره) طب خد رضع الزفتة دى على بال ما أخدم ميادتك يا بك ياكبير .

هو (فى صوت خافت) أعوذ بالله (بكلم نفسه) ده أنا اتجوزت شيخ عفر .

(تنطلق هى لتعود كالصاروخ فى يدها دورق ماء من الخفة تقعد اعادة فى عف وخطف الطفلة)

هى خد اشرب . اطفح . اتسمم . بالهنا والشفا

هو متشكر يا ستى . . الله يسامحك .

هى يسامح مين . يسامحنى واللا يسامحك . مين فينا اللى جور على التانى .

هو : يسامحنى أنا . أنا المجرم الجانى الظالم المفترى السفاح اللى جيت على شبابك ، وضيعت عمرك ، وميلت بختك ، ودبلت جمالك أنا (يضرب نفسه بالكف على صدغه) أنا اللى أستاهل ده كله

هى أيوه كده اعرف نفسك كويس

المشهد الثالث

(فى نفس الكومة بعد عشر سنوات)

الزوجة الآن جميلة مثل النور الأسترالى . لفافات البيج تغرق فى قمها سجارة بعد سيجارة ، كأنها مدخنة ورائحة فمها لا تطاق من السجائر . حولنا أربعة أولاد

على المائدة نفس أدوات الليموناضة

الزوج يضع على عينيه نظارة سميكة ويطالع كتاباً

الزوج على عكس زوجته قد أصبح نحيلاً مقصوصاً مقيماً شاحباً .

هو : (فى قرف) الليمون معفلص والسكر فيه نمل

هى : طيباً لو كانت الخادم الحبيبة الفائقة مدام سهير معانا دلوقت وهى التى بتعمل لك الليموناضة . كانت بقت من إيديها شهد عسل نحل .

هو : من مدام سهير .

هى : عشيقتك . رفيقتك . . يا حاير . . يا غادر . . فضحتنى فى الحارة . جرّسنى فى الحتة كلها . الناس كلها بتتكلم . ويا ريت الحكاية وقفت عند سهير . وساء . . وسلوى . الاّ بقيت بتاع كله . مفيش واحدة جربوعة الاّ تبص لها . مفيش خدامة الاّ تحلق لها . مفيش كلبة الاّ تشاور لها .

هو : إيه الكلام الفارغ ده يا وليه . أبص لمين وأحلق لمين . دنا لابس نضارة عمر كمامة . دنا مش شايف أمشى . دنا اتعميت . . دنا بحسس .

هى : ومالهاش تحسس برده على سبيل التجديد . فراخة العين ماطاش حدود عند الجانبين اللى زيك .

هو : أنا اللى مجنون يا وليه يا مورستان . يا وليه يا حانكة . . يا وليه وطى حسك . صوتنا بيوصل لآخر الشارع . الناس تقول فيه حرامى فى الشقة . أو حريقة . أو مصيبة .

هى : إنت اللى عملها حريقة ومصيبة . . إنت اللى على عيشتى جهنم . لكن يكون فى علمك . أنا لسه بحالى وشبالى . . أنا بمشى فى الشارع بتقف لى العربيات .

هو : نعم ياختى ؟! بتقف لك إيه ؟!

هى : بتقف لى العربيات

هو : (صارخاً) فصدك عربيات الرش . وعربيات البطيخ . . وعربيات النقل (يضحك) وعربيات السبارس .

هى : إخرس قطع لسانك . عربيات السبارس دى عشانك وعشان أهلك .

هو : أهلى كمان .

هى : إحنا بمشى ورانا عربيات شبك . العربية عشر متر .

هو : أنعم وأكرم ناس بهوات صحيح .

هى : لكن إحنا ما بنرضاش . . أصلنا ناس متربيين .

هو : ونعم التربية ماهو باين

هى : كان ممكن نجيب مليون جنيه فى اليوم

هو : (صائحاً) ليه . . إنت قناة السويس

والله لو اتفتحت قناة السويس ومشيت فيها بواخر أمريكا ما تجيب مليون جنيه فى اليوم .

هى : حضرتك بتتريق .

هو : لا . أبدًا أستغفر الله . أنا أقدر أمس الشرف الرفيع اللى يجيب مليون جنيه . ده حضرتك مورد سياحى (يضحك ضحك هستيرى) .

هى : (صارخة) يعنى إيه . يعنى مش عاجباك . يعنى مش مالية عينك (منتفخة وباكية ولاطمة وجهها) . . يا بختى الطايل اللى وقعنى فى الراجل الدون . الراجل الندامة . الراجل اللى مايسواش . الراجل الخسيس .

هو : يا وليه بلاش خناق . أنا جالى فتق من الزعيق .

هى : فتق . يا مصيبتى . يا خيبتى . يا لهوتى . كمان فتق . فضل فيك إيه !

المشهد الرابع

(بعد عشرين سنة .

فى نفس البلكونة . خمسة أولاد . الزوجة الثرى . والرجل المخصوص هذه المرة يتوكأ على عصا . أمامهم المائدة عليها أدوات الليموناده) .

هى : (تقوم وتقعد فى خصية) تطلع تنزل عاوزة حبة جنيه حالا .

هو : منين يا وليه . . إنى مش واخدة منه وخسين جنيه إمبارح . . أنا حادق فلوس .

هى . وايه مبه وخسين حبه . دول مبه وخمسين مليم فى الغلا اللى إحنا عايشين فيه . مبه وخمسين مليم . هانجيبوا أكل والا هانجيبوا شرب

هو والله الموجود . مخديش غير كده .

هى طبعاً داير توزع فلوس على أهلك الشحاتين . داير تغرق على الخدامين الهلاليت يمين وشمال . فاتح بيتى لأهلك الصايعين ولله أنا مش متجوزاك إنت وأهلك . . ولما انت أهلك بتوع فجل وجرجير كنت بتتجوز ليه البهوات اللى زينا . . إنت لازم تعرف إن أنا بنت بك وأنى مش وش العيشة الزفت دى

هو (فى هدوء) والله بلاش العيشة الزفت دى وروحى للبك أبوكى . أنا مش عاوزك .

هى (بصرخ) إنت بتكرشنى . . إنت بتطردنى . بعد عشرين سنة خدمة بتطردنى .

هو والله بقى إحنا ناس بتوع فجل وجرجير ، وحضرتك من البهوات . حرام تعصبى نفسك على العيشة الدون دى أنا كمان ما بخلصيش . اتفضلى من غير مطرود على قصر عابدين بتاع أبوكى .

هى وكمان بتتجرأ وتقولها . . إنت فاكر إن أنا قاعدة عشان خاطرك إنت فاكر إن أنا غاوية وشك النكد . . ده لولا الولاد كنت مسته لك البيت على الصرمة القديمة

هو أمرى . إحنا فيها

على (تصرخ فى غيظ) وكمان بتقولها ثانى يا ندل يا ساقل .. يا قليل الأصل (تخطف دورق الليمون وتدشه على رأسه فيخطف العصا ويضربها على رأسها ينهى المشهد على صراخ الأولاد وتجمع الحيران ودم وشاش .. وقطن وأربطة .. وصبغة يود .. ويا دهوتى الحقونى .. الراجل حايقتلنى)

* * *

(بعد أسبوع
مذيع برنامج على الناصية يعترض الزوج فى الطريق)

المذيع : تتعرف بحضرتك .

- الدكتور عبد الجليل .. إيه خير .

- برنامج على الناصية بياخد آراء مختلفة فى استفتاء كبير عامليه عن السعادة الزوجية .. حضرتك متزوج .

- جداً .

- مخلف .

- بشدة .

- سعيد .

- مُوت .. (يتحسس الأربطة الشاش وحزام الفتق)

- الست زوجتك لها نشاط اجتماعى .

- ونشاط سياسى كمان وحيالك ، ومشتركة فى جمعية انسانية ، ولها دور تربوى ، وخط خطين تحت الدور التربوى ده .

- عظيم .. عظيم .. يعنى امرأة عصرية من كل الوجوه .

- آخر موديل .. بنت النهاردة .
- إيه رأيك فيها كست بيت .
- مديرة مالية لآخر مليم فى جيبى وفى جيب الجيران كمان .
- محدثة .
- ماحدش يقدر ينافسها لأن صوتها أعلى من الكل .
- مُطَلِّقة .
- وفيلسوفة وفلكية وجغرافية وجيولوجية وتتكلم فى كل موضوع بدون سابق اطلاع .
- عجيبة .
- جدًّا .
- ذاكرتها قوية .
- تحفظ أكثر من مائة رقم للبيفون عن ظهر قلب .
- نموذج هايل .
- ربنا يوعدك بواحدة زيها .
- تفتكر إيه نتيجة ظهور هذا النوع الجديد من المرأة العصرية فى بلدنا ؟
- حاتكثر القهاوى وغرز الحشيش والبارات .

المليح . (لا يدرى عليه أنه يفهم) ليه .

- عشان الرجالة اللاجئين المهجَّرين اللى زيى واللى زيك اللى حايطفشوا من جنة السعادة الزوجية .

(المليح يندر عليه اللاهة ويطق الميكروفون)

إلى هنا يا سادة يا كرام تنتهي التسجيلات الخاصة بالدكتور عبد الجليل ومدام عبد الجليل . وهي واحدة من مئات التسجيلات التي أخذتها من مئات البيوت . وللأسف أعلنها بشير إلى حالة تدهور عام في العلاقات الزوجية .

واسمحوا لي فأنا من أب فقير وأم فقيرة ، ومن عائلة من بسطاء الناس ، حظنا من التعليم متوسط ، ومع ذلك لم أسمع في بيتنا التخلف مثل هذا الحوار الساقط الذي يملأ شرائط التسجيل في بيوتنا العصرية .

والظاهر أني إنسان غبي جدًا لا أفهم .

لا أفهم لماذا يسمون هذا الذي جرى للمرأة . تقدمية . قد أكون سيئ الحظ في انتقاء النماذج فلا تقع يدي إلا على الحالات الشاذة أو المرضية .

ولكن يبدو على قدر فهمي . أننا نتقدم فقط في الأدوات والماكينات وفي الكهرباء والمغنطيسية . ولكننا كادميين نسير إلى الخلف . لا محبة لا إنسانية . وإنما ناس يأكل بعضهم بعضاً بالشوكة والسكين (وهذا كل أثر المدنية) .

ومرة أخرى أرجو أن أكون مخطئًا .

وأرجو أن يصحح القراء ويبعثوا إليَّ بتسجيلات من بيوت عصرية طيبة تبعث على التفاؤل وتساعدني في البحث الذي أكتبه عن حركة التاريخ من عصر الكارو إلى عصر الصاروخ

الوهم والحقيقة

ذات صباح فى علية القرعونية .

الجميلة «لى» تكحل عينها بمكحلة من العقيق .

تحتال راقصة كأنها فراشة .

تغنى وهى تنظر إلى الشاب الجميل «بتاح» الذى ألقى بصنارته ليصطاد عند الشاطئ :

يا حبيبى . . كم هو جميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل أمامك .

وأجعلك ترى جمالى ، وقد التصق ثوبى المبتل بجسدى فأظهر تفاصيله .

تعال وانظر . . وحذار أن تلقى علىّ شباكك فأنا سمكة صغيرة تفلت من جميع الشباك .

(بتاح يلتفت نحوها باسمًا ويغنى) .

إلهى حبيبتى . .

ليتنى كنت جاريتك التى تقوم على خدمتك ، لأرى لون جسدك كله .

ليتنى كنت الخاتم الذى فى أصبعك ، والسوار الذى فى ذراعك ، والعقد الذى على صدرك .

ما أسعد الذى يلثم فمك ويستنشق النسيم العذب الخارج من شفتيك

طويلة العنق جميلة الثدى .

ساحرة العينين حينما تنظرين

ذراعك يفوق الذهب فى طلاوته .

أما أصابعك فمراعم اللوتس .

سلبت روحى مع قبلتك .

(يجلس الحيان فى حضن جميزة عتيقة)

بتاح غدًا تتزوج يا حبيبتى .

- أنسيت أن الغد هو عيد الحصاد ، وسأرقص فى قصر الملك .
- وسوف أغنى أنا أيضًا مع المنشدين .
- إذن تؤجل يومنا السعيد عدة سويعات أخرى .
- ستكون سويعات أطول من السنين والدهور .
- كلما طال الوقت طاب الثمر .
- واشتاقت الأيدى للقطاف .

(يمسك يدها فى حنان ويكتب الاثنان اسميهما على الجميزة)

- سيعيش اسمانا هنا ألف عام . . ونخلد حينا .

(يقبل يدها) .

(تخلت منه بسرعة عائدة إلى بيتها) .

(فى المساء وهى تغمض عينيها لتنام تغمغم مترنمة كأنما تهدهد طيرًا فى حجرها) :

فى الليل على فراشى ظلت من تحبه نفسى .

طلته فما وجدته

أنعشوني بشراب الورد قبل مريضة

أحلم بمن أحبه بين ذراعي .

أحلفكن يا بنات طيبة بفراشات الحقل ألا توقظنني من حلمي .

(مساء اليوم بعد الحفل وقد عاد بتاح حزينا يمشي بأكتاف محنية وظهر محدب)

(يدخل على أبيه الحكيم «يوباء» ويسهر على صدره باكيا)

- أبي . سوف يأخذ الملك حبيبتي مني . لقد خطبها وقبلت خطبته . رأيتها ترقص أمامه فخلبت لبه . أتسمعني .

«بى» قبلت أن تكون زوجة للملك ولم تتردد ولم ترفض

- لا توجد امرأة ترفض أن تكون زوجة للملك يا ولدي .

- ولكنه ملك عجوز بلا أسنان . جلده معفن مثل تبنة عفنة وله سبعون زوجة وجارية وخليلة

- المرأة يطربها كثيراً أن تكون المفضلة على سبعين .

- وأنا ما مصيري .

- تغنى يا ولدي كما تعودت أن تغنى .

- حتى أموت .

- بل سيجود صوتك وتحلو نبراتك وستبكي جيداً ، وتجعل الناس يبكون جيداً بلا تكلف أو افتعال .

- سوف أموت من الحرمان

لا أحد يموت من الحرمان ، وإنما الناس تموت من الشبع . الحب يولد في الخيال ويموت في الفراش .. يقتله الارتواء .

الأرتواء هو الذى يميت يا ولدى أما العطش فيحيى .

- وماذا ستفعل «نى» من بعدى .

- سوف تصبح ملكة . . وهذا أمر يسعد المرأة أكثر من أن تكون زوجة لصياد يلقى المواويل .

- وستبكى كثيرًا .

- نعم ستبكى كثيرًا . . ولكن هموم الملك سوف تشغلها بعد ذلك عن البكاء .

(يتاح يدفن وجهه فى صدر أبيه) .

- سأموت . . سأموت يا أبى

- ما أحلى صوتك وأنت تنوح من قلبك يا ولدى . . سوف تغنى الناس . سوف ينقشون اسمك على أعمدة المعابد ويغنون بك . سوف تكون خالدًا مثل رع وحورس وأمون .

- سأموت . . سأموت .

- بل ستخلد . . ستخلد .

* * *

(فى القصر الملكى .

الملك العجوز سقرو كارع على سرير الملك يصرخ فى حاشيته) .

- أين أطبائى . . أين كهنتى . . ملعونون جميعًا . . لم أنم البارحة من الألم . . لم يفلح الطبيب سنحور فى علاج التمرس . . اشنقوه على باب القصر . . استدعوا لى طبيبًا آخر (يتنهد فى ألم) غدًا أدخل على عروسى الجميلة «نى» وتدفئنى بجسمها ، وللملكى

يصدرها ، وتداويني من الأمى ، وتعيد إلىّ حرارة الصبا . أين الكاهن «حتسو» وأعشابه التي تعيد الشباب ؟

أين الطبيب حور محب ومشاروه ؟ أين حم أيون وعقاقيره السحرية ؟ أين الحكيم «بوباء» الذى لا تخيب نصائحه ؟

(يدخل الطبيب حور محب)

- ماذا عندك اليوم لى . . ما هى فتاويك أيها الطبيب الحاذق .

- استحضرت لك مرهماً من أعشاب نادرة ، وشراباً قابضاً سوف يردان لك عافيتك .

(يدخل طبيب اخر يسمونه «راعى ثرج الملك» متخصص فى علاج البواسير . يجل على الملك ويعطيه ليوسا . فى حين يتداول عدد من المستشارين الطبيب والكهنة والحكيم «بوباء» فى كيفية بث الحياة فى هذه الجثة الملكية)

(يسمع الملك يصرخ من يديهم)

- أين رئيس الحرس . لا أريد تحالاً لأحد غيرى فى طول البلاد وعرضها . لا ينقش على الأعمدة إلا اسمى ولا تقام التماثيل إلا لى . . لا ملك فى هذه الأرض سواى . . أنا منفرد كارع ملك الوجهين القبلى والبحرى ، وابن الإله رع . . مقدس إلى أبد الآبدين .

- لقد أزلنا عدداً كبيراً من تلك التماثيل يا مولاى .

- حطموها كلها .

- سمعاً وطاعة يا مولاى .

(يطرق أصابعه المعجاه ويعود إلى الابتسام)

- غداً أدخل على عروسي الجميلة «تي» وتدفئني بجسمها ، وتدلكني بصدرها ، وتداويني من الآمي .. ما أمتع الحياة .. وما أروع أن يخلد الإنسان ويهزم الموت.

(الحكيم «بوبا» وقد انحنى جانباً يهمس بصوت خافت إلى الطبيب)

ذلك العجوز العفن الذي يقع نفسه في الماء والملح كل يوم مثل الرنجة ليطول عمره.

حقاً ما أعظم حكمتك يا إلهي .. كما تعالج الحديد بالنار تعالج أنت المتكبرين بالهوان .. هذا الملك قد جعلت منه شحاذاً يشحذ الحياة ساعة بساعة ، ويشرب الصاب والعلقم ، ويمضغ الحنظل ، ويلطخ نفسه بالمراهم الكريهة ، ويضع في شرجه لبوساً ليسرق لحظة إضافية من حياة تعسة لا تساوي تكاليفها ..

ثم بعد ذلك تلقنه الدرس الأخير .. الموت .. المؤدب الذي يعلم كل الذين لا يتعلمون

(الملك ما زال يطرق أصابعه العجفاء ويهمس في تلذذ) :

- غداً أدخل على عروسي الجميلة «تي» وتدفئني جسمها البض ، وتدلكني بثديها المستدير الشهي مثل رمانة من بابل.

* * *

(بعد ثلاثة آلاف سنة في نفس المكان.
عالم آثار ومعه عدد من الحفارين ينبشون الأرض بحماس.
العالم الأثري يشاور على قطعة الأرض أمامه) :

- هنا تنام ثلاثة عصور فوق بعضها .. عصر فرعوني ، ومن فوقه

عصر رومانى ، ومن فوقه عصر فاطمى .. هنا كنز أثرى كل شبر تراب فيه يساوى ثقله ذهباً .

إذا استطعت أن أمسح هذا المكان مسحًا تاريخيًا أثريًا كما أشتهى فسوف أكتب بحثًا خالدًا .

(أحد العمال يعثر فى التراب على مكحلة . فيهرول بها إلى عالم الآثار يتناولها العالم بيد هنيئة ، ويقلبها أمام بصره ، ويفحصها بعناية شديدة)

- مكحلة من العقيق من العصر الفرعونى .. على أى عمق وجدتم هذه المكحلة ؟

- على عمق ستين قدماً

- معنى ذلك أننا قريبون من مقابر سنفرو كارع الذى يشك فى وجوده التاريخيون .. احفروا .. احفروا بهمة وبلا توقف .. سوف نكتشف اليوم كشفاً عظيماً .. ونضيف إلى كتب التاريخ صفحة خطيرة مفقودة .

(ما زال يقلب المكحلة ويحس)

- ترى أى عين اكتحلت بهذه المكحلة .. وأى نظرة حانية كانت فى تلك العين وهى تكتحل .. وأى دموع سكبتها .. وعلى من سكبتها .

* * *

(بعد ثلاثين يوماً من الحفر

ما زال العمال يحفرون .. ولا يخرج إلا التراب .

وعالم الآثار يروح ويجىء فى يأس ويحملق فى الفعلة)

- أين سنفرو كارع ؟

(فيجيبه مهندس الآثار فى حيرة) :

- لعله كذبة . . ولعل العلماء على حق فى الشك فى وجوده .

- والعصور الثلاثة .

- هذه هى العصور الثلاثة أمامك .

(وأشار المهندس الأثرى إلى آلاف الأطنان من التراب) :

- تراب . . تراب . . تراب . . هذه هى العصور الثلاثة . .

أنشودة الدم

مسرحية من فصل واحد

الوقت ليل . .

فى الخلفية نرى صحراء مقابر العلمين . . مئات من الصلبان الخشبية تبدو متراصة على الرمال كنباتات قصيرة جرباء . . يبدو الطريق الأسفلت الذى يؤدى إلى مرسى مطروح .

فى جانب نرى كشكًا خشبيًا يقف فيه عسكرى إنجليزى .

فى الجانب الآخر قطاع من استراحة العلمين فيه غرفة واسعة ، وسرير ومائدة ودولاب وكرسيين وساعة مستديرة على الحائط .

الرياح تعوى فى الخارج .

صوت وشوشة البحر . . وأمواج عالية . .

رعد وبرق ومطر ينزل ثم ينقطع ثم يعود إلى النزول من جديد . .

نرى الحارس الإنجليزى يخرج زجاجة نبيذ من جيبه ويجرع منها فى شراهة ثم يدندن ويغنى :

- دولالا . . دولالا . . لا لا . .

(يبدو أنه وحيد فى هذا المكان الموحش . . وأنه ملول . . وأنه يحاول أن يغرق

وحدته فى الشراب وفى الغناء بصوت جهير .. مجرد دندنة بلا معنى ..)

- دو .. لالا .. لالا .. لالا ..

(يتمالك على الكرسى متحدثًا إلى نفسه)

- أوه .. هذا الجو البارد .. وهذه الريح التى تصفع الوجه .. يا لهذا المطر اللعين الذى لا يريد أن ينقطع .. أشعر كأنى كنت واقفًا هنا من ألف عام ..

يعود إلى الغناء ..

- دو .. لالا .. لالا .. لالا ..

(يتوقف مصغيًا إلى صدى صوته ويهمهم وهو يتأمل المكان حوله)

- لا فرق بين لحظة وأخرى فى هذا المكان الموحش .. لكأن الوقت لا يمر .. لكأنها الأبدية التى نعيش فيها بعد الموت والبعث .. يا له من مكان ..

(نراه يدخل الكشك ويخرج حاملا منفضة ويتجه إلى الجانب الآخر الذى فيه الاستراحة .. يدخل الغرفة .. يبدأ فى تنفيض الأثاث وترتيبه .. يسمع طرقًا على الباب .. يستدير فى دهشة)

- من هناك ؟

(يسمع الطرقات واضحة)

(يذهب إلى الباب يفتحه .. لا يجد أحدًا)

(يخرج إلى الخلاء ويلتفت حوله وهو يصيح)

- هيه .. هو ..

(لا أحد يرد .. ولا أحد يرى من قريب أو من بعيد ..

تسمع من جديد الطرقات على عدة أبواب)

(يلتفت إلى دهشة ودهش)

- هيه .. هو .. مَنْ هناك .. من الذى يطرق الأبواب ..

(لا أحد يرد ..)

(يهمس إلى نفسه)

- أهى العفاريت (تسمع الطرقات بعيدة خافتة يرسم علامة الصليب على صدره) . يا إلهى ليحفظنا المسيح ..

(يسمع صوت عربة على الطريق الأسفلت ..

يرتفع صوتها رويدًا رويدًا

وتظهر مقدمتها ومصابيحها عند أول الطريق .

نرى الحارس يلعب لقائها

تقترب العربة وتتوقف عند الكشك .

العربة من نوع الفورد القديم الذى كان يركبه تيلاء زمان .

يفتح باب العربة

وينزل رجل مهيب فى جلة سوداء ، وفى يده صندوق يشبه صندوق الخيار .

من الرجل حول الأربعين .. ولكنه ممشوق بادى الصحة .. يبدو عليه مظهر السادة الذين تعودوا أن يلقوا بالأوامر . وجهه مهيب صارم الملامح وجبهته عالية وعيناه نافذتان مشعتان . تسمعه يسأل الحارس) :

- هنا استراحة العلمين .

- نعم يا سيدى .

- هل أستطيع أن أجد غرفة خالية لبيت المساء .

- مؤكد يا سيدى ..

- حسنًا

(يمد الحارس يده ليحمل عنه الصندوق) .

- دعنى أحمله عنك .

- لا .. لا شكرًا ..

(يطلعه الحارس إلى الاستراحة)

- تفضل من هنا ..

(يقوده إلى الغرفة الواسعة بالاستراحة)

(الحارس خارجاً)

- لحظة واحدة .. سآتى لك بأغطية ثقيلة .. إن الليلة باردة ..

(نرى الحارس يخرج إلى الخلاء ذاهباً نحو الكشك نراه يقف فى الطريق ويحصر ذهنه متسائلاً)

- أين رأيت ذلك الوجه من قبل .. إلى رأيته .. أنا واثق أنى رأيته .. ربما فى صورة .. ربما فى صحيفة .. وربما رأى العين .

يا له من رجل شامخ الجبهة مثل نابليون .

لكأنه قائد فرقة من الكوماندوز .

لكأنه بسمارك .. أو نابليون .. أو .. أنا واثق أنى رأيته ..

أين .. ومتى .. وكيف ..

(يعصر رأسه ثم يهزها يائساً . يدخل الكشك ثم يخرج ومعه بطانية من الصوف .. يذهب بها نحو الغرفة . نراه ما يزال يهز رأسه محاولاً أن يتذكر)

(يدخل الغرفة ومعه البطانية)

(يضعها على السرير)

(ينظر إلى الزائر الذى أخرج نابليون وبدأ يدخن)

- هل أستطيع أن أتشرف بمعرفة السيد .

- مجرد مسافر على الطريق أمره لا يهم أحداً . .

(وهو يهيىء له الغرفة) .

- أنت متواضع جداً يا سيدى . .

(الزائر ينفث الدخان بعدم اهتمام ولا يرد) .

- وهل يبقى سيدى عندنا طويلاً . .

- ربما ليلة وربما بضع ليال إذا أعجبنى الجو وواتانى الإلهام . .

(الحارس فى دهشة) . :

- الإلهام . . تقول الإلهام

- نعم . . فأنا أتيه من سنوات باحثاً عن بيئة تلهمنى لأكمل ملحمتى الشعرية . .

(الحارس فى دهشة أكبر) :

- ملحمتك الشعرية . .

- نعم . . فأنا أكتب ملحمة شعرية . . عن الحرب . .

- أوه . . أنت إذن شاعر . . يالها من سعادة أن ألتقى الليلة بشاعر عظيم . .

- وكيف عرفت أنى شاعر عظيم ؟

- لابد أن تكون شاعراً عظيماً . . لابد أن تكون رجلاً عظيماً هكذا قال لى إحساسى منذ أن رأيتك . .

- هذا عجيب . .

(الحارس يقف مترددا) .

(الزائر مشاوراً له ليجلس) .

- اجلس . . إن الليل طويل . . والسمر يحلو فى مثل تلك الليالى ، لابد أنك تعرف الكثير عن المكان . . يبدو أنك اشتركت فى تلك الحرب ؟

- نعم كنت جنديًا فى الفرقة الخامسة .

- عظيم .

- لا شك أنك تعجب لأنى اخترت الإقامة فى هذا المكان الموحش فى الوقت الذى كان باستطاعتى فيه أن ألحق بزملائى فى انجلترا

- هذا فعلاً اختيار غريب .

- أما بالنسبة لى فإنه ليس غريبًا على الإطلاق . . فليس لى أهل هناك فى انجلترا ، وإنما كل أهلى وأحبائى هنا . . فى هذه المقابر

(يشير إلى مئات الصلبان مرددًا فى تأنى .

هنا حيائى .

(لحظة صمت) .

(يعود الخارس إلى الكلام مشيرًا بأصابع مرتعشة) :

- وهنا يرقد شارل . .

- شارل . . ؟

- أنت لا تعرف شارل . . لو أنك عرفته كما عرفته أنا لما استطعت أن تفارقه حيًا أو ميتًا . .

- إنى أود أن أعرفه كما تعرفه . .

(الخارس يحرك يديه وينظر إلى المائدة الخالية . . وإلى الساعة التى تدق الثانية بعد منتصف الليل) .

- لقد نسيتا . أنت لا شك لم تأكل شيئاً طوال هذه الرحلة . . والسفر كان مضنياً والطريق طويل . . هل تأذن لى فى أن أحضر شيئاً للعشاء . . إن حكايتنا سوف تطول . .

- شكراً . . لا مانع . .

(يخرج الحارس وهو يفرك يديه . . وتراه فى طريقه إلى الكشك يهمهم فى فرح)

- إنه شاعر . . يا لها من ليلة رائعة سوف أقضيها مع الفن . . .

(يدخل الكشك ليلبث قليلاً ثم يخرج ومعه الطعام ، وهو يهمهم مخاطباً نفسه) .

- ولكنى رأيته من قبل . . أقسم أنى رأيته . .

(بينما نرى الزائر فى نفس الوقت يقوم ليتمشى بالغرفة يتأملها وهو يخطو ذاهباً آيباً فى خطوة عسكرية كأنه قائد .
يعود الحارس حاملاً الطعام ، صينية عليها خمور ولحم وخضر طازجة وجبن وموزات محلفة) .

(ينظر الزائر بابتسامة) :

- أوه . . هذه وليمة . .

- إنها سعادة أن أخدم على مائدة شاعر عظيم . .

- أشكرك . تفضل معى . . أرجوك . . اجلس .

(يجلس مترددا يلفت نظره صندوق القيثار الكبير فيقول سائلاً فى دهشة وجلة) :

- يبدو أن سيدى يعزف على الجيتار !

- (فى دهشة وهو ينظر إلى الصندوق) الجيتار . . ؟ آه . . نعم إنها هواية قديمة . . لم أستطع أن أتخلص منها . .

- هذا رائع .. شاعر .. وموسيقار ..

(لحظة صمت .. الحارس يصب كأساً لضيفه .. ويقدم له طبق اللحم فى إعجاب وانبهار .. يصب لنفسه كأساً)

الزائر : ولكنك لم تحدثنى عن صديقك شارل !.

- شارل .. نعم .. يالها من أيام .. (يسرح ويبدو عليه الحزن) إن الحرب شىء فظيع .. (ثم يلوذ بالصمت).

- لم تقل لى كيف مات صديقك ؟

(الحارس يبدو ساهماً شارداً .. يمسح جبهته .. لحظة صمت) ..

الحارس : كانت ليلة الهجوم الكبير فى العلمين (يجحب عينيه كأنه يرى أضواء قذائف) قصف المدافع .. ونيران القنابل الحارقة .. وأزيز الطائرات ، ودمدمة الرشاشات .. وهزيم الدبابات .. ما زالت تصك أذنى كأنها تحدث حولى اللحظة ولم تمر عليها كل تلك السنين ..

ليلتها كان كل هؤلاء (يشير إلى ساكنى المقابر كما يبدون من النافذة) يملئون تلك الساحة الخلاء بالحركة والحياة .. وكانت هذه السماء مضيئة بآلاف القنابل .. ولولا صرخات الموت هنا وهناك لخيل للواقف هنا أنه فى محفل سماوى رائع .. إن منظر الدم يسكر .. أقول لك إن منظر الدم يسكر (عينا الحارس تلمعان) ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من جربها ..

إنك تخاف من الحرب ، وترتجف من أهوالها طالما كنت بعيداً عنها ، تسمع أخبارها على ألسنة الرواة ، وترى صورها فى

الصحف ، أما إذا عشت فى معمعانها ورأيت الدم يتفجر من حولك ، فإن رأسك يدور ، وحلقك يجف ، وتتحول إلى حيوان مفترس لا يعرف الخوف . . حيوان عطشان للدم . .

إن أسنانك تصطك الآن لمجرد تصور السونكى فى يديك وأنت تدفعه فى قلب رجل وتستل منه الحياة . .

- إن أسنانى لا تصطك صدقنى (فى نشوة) إنه لمنظر شائق وشاعرى أن أرى الموت رأى العين . . وأرى الدم يتفجر كالينبوع من القلب .

- (يحملق فى وجهه بدهشة) إنه الجنون عينه . . لابد أنك عشت هذا الجنون . . لا يقول هذا الكلام إلا من فقد عقله يوماً ما فى تلك اللعبة المجنونة . .

- من يدرى ربما فقدت عقلى يوماً ما هناك . .

- إن مهنة القتل تنبت مخالب فى هذه الأيدى الناعمة (يشاور على يديه) اقتل . . اقتل . . اقتل . . اقتل . . اقتل فى حماس وهمة إذا أردت أن تنتهى من كل شىء . . يا لها من نشوة بشعة . .

- ماذا فعل صديقك تلك الليلة ؟

- كنا ساعتها نحارب فى مركز أمامى . . وكان علينا أن نتقدم ببطء تحت ستار من قنابل المدفعية . . وكنا نزحف على بطوننا كزوج من الأفاعى ، وبين لحظة وأخرى نرفع رءوسنا لنلقى بقنبلة يدوية ، ثم نعود ندفن رءوسنا فى الرمل ، ونزحف من جديد (يصمت لحظة) وفجأة ظهرت أمامنا دبابة معادية شقت الضباب ، وسحب

الدخان ، وأطلت برأسها كخرتيت قبيح ، وأخذت تتقدم نحونا تحطم رهيبة ضاربة حولنا سياجاً كالسجناً من النيران . وكل لحظة تمضي كانت تقربنا من موت أكيد

موت أكيد يمد نحونا أذرعاً أخطبوطية من اللهب والرصاص والأمل واحد في المليون.

معجزة.

أن تلقى بقنبلة فتسقط في تلك الفجوة الصغيرة في برج الدبابة وتنفجر في سائقها.

فجوة من عدة سنتيمترات يجلس فيها الموت

ونحن نلعب معه لعبة كرة السلة.

من يضع الكرة في السلة ؟

والدبابة تقترب . .

وأسمع وقع خطاه الحديدية وكأنه يمشي على أضلاعي . وأرتجف . وأشعر أني مشلول تماماً . وألتفت حولي باحثاً عن نجدة ، فأرى ذراع صديقي شارل ترتفع بقنبلة يدوية تلوح بها في الهواء . ثم لحظة صمت وحرير الدبابة تقترب . ثم انفجار مروع وتتوقف الدبابة .

لقد حدثت المعجزة . ونزلت القنبلة في البرج .

ويقفز شارل ليحتضني وهو يصيح . هورا . هورا . لقد انتصرنا . ثم أشعر بريح ساخنة تلفح خدي وشيء يصفر ويمرق كالبرق إلى جوار أذني . ويسكت شارل . والتفت إليه فأجده

مازال يحضن بذراعيه . ولكن يا إلهى ، لقد أصبح بلا رأس . . قد أطاحت شظية برأسه من بين كتفيه .

ومكان الرأس فجوة رهيبة يتفجر منها الدم كالنافورة . ولكن ذراعاه مازالتا تحتضنانى فى نشوة خرساء . . يا لها من لحظة فظيعة .

كان يمسك فى يكلتا يديه جثة بلا رأس . لا يريد أن يفارقنى حيا ولا ميتا . وكنت مازلت أسمع صيحته .

هورا . لقد انتصرنا (فى صوت باك) انتصرنا

(لحظة صمت طويلة . الحارس يلتقط أنفاسه ثم يتمتم :)

كانت ليلة رهيبة .

أحيانا يخيل إلىّ أنها كانت كابوسا .

وأحيانا أتذكرها فلا أصدق أنها حدثت هكذا كما رأيتها فى الواقع ، وأنى عشتها بحواسى وطالعتها بعينى .

نعم ، لقد انتصرنا .

وعاد منا إلى الوطن من عاد .

ورقد تحت التراب من رقد .

ولكنى لم أستطع العودة مع العائدين .

كنت أشعر دائما بذراعى شارل الحونتين تحملانى .

وكنت أشعر أنى أحيا مع الأحياء ، لأنه أراد لى أن أحيا وافتدانى بدمه . ولم أستطع أن أفارقه . .

وطلبت من القيادة أن أبقى حارسا على مقبرته فى هذا المكان

الموحش ، فهنا كانت حياتى . . وهنا كان مولدى الثانى .
وسيكون مرقدى الأخير . .

(يسكت الحارس وترى عيناه تلمعان . .) .
(يطول سكوته . .) .
(يصب كأسًا من الزجاجة ليجرعها دفعة واحدة كأنما ليطفئ نارًا شبت فى داخله)
(عيا الزائر تلمعان . .) .
(عويل الريح فى الخارج . .) .
(رعد وبرق وأمطار . .) .

الحارس (فى صوت خافت) سيدى . . ماذا تقول فى هذه الحرب ؟

الزائر (يلقى برأسه إلى الوراء ويترنم) .

الموت فى ثوان
والمجد فى ثوان
وزبدة الحياة
طعمة النيران
بوركت حياة
على شفا بركان
وسيوف تغسل آلاف الأدران
وتداوى سرطان الإنسان
من سرطان الإنسان

(الحارس فى نشوة وعيناه تلمعان) :
– هذا رائع . . . لكأنك كنت هناك تحارب معنا .

إنك شاعر تقول الشعر من قلبك .

كلماتك رصاصات .. ألغام ..

(الزائر عيناه شاردتان يلقى بأبيات أخرى) :

ما أجمل السكنى

فى ذلك الوادى بلا سكان

ما أجمل الصمت والسكون والخواء

حيث لا منى ولا رجاء

ما أجمل الزمان ينسج الأكفان

يتوج الهامات بالريحان

يزرع الخلاء بالصلبان

الخارس : نعم .. هذه هى الحرب .

هذه هى الحرب بعينها .

(لحظة صمت) .

(عويل الرياح فى الخارج) .

(رعد وبرق وأمطار) .

الخارس : لكم أحب أن أسمع معزوفاتك على هذا الجيتار (مشاورًا على الصندوق) لابد أنها رائعة مطربة مثل أشعارك .

(الزائر فى ابتسامة غريبة وعيناه تلمعان ينظر إلى الصندوق) :

- أوه .. هذا الجيتار ..

(يميل على الصندوق ويفتحه) .

(الخارس يفغر فمه يكاد يغمى عليه وهو ينظر بداخل الصندوق فلم يكن هناك

جبان ولكن مدفع رشاش).

(الزائر عياه للحان وينظر صهما الشزر وهو ينظر إلى الآلة القبيحة الجهنمية الراقدة في الصندوق.

جبل على المدفع الرشاش يلتقطه من مكانه.

ثم ينتفض فجأة على قدميه واقفًا في وضع استعداد ويبدو على زناد المدفع الخارس يتقفر إلى الوراء مذعورًا).

- سيدى أنت لا شك تمزح معه

- (في صوت معدني بارد لا أثر للإحساس فيه) لا . . أنا لا أمزح إنها صناعتي الحقيقية . أنا قاتل صناعتي القتل . أما الشعر فهواية أمارسها في أوقات الفراغ.

- ولكن.

- (في صرامة) وقد حان وقت العمل . . وعلينا الآن أن نقتل . كفى ما قضيناه من وقت طوال هذه الليلة المتراخية في الكسل وقرض الشعر.

- ولكن يا سيدى . .

- (في صوت قاطع) أريد أن أقتل . . أريد أن أقتل (يحط عياه ويشرع مدفعه الرشاش وتمتد يده إلى الزناد وتظهر شفتاه عن أسنان لامعة قاسية وتظهر عليه تلك السحنة المقاومة التي يعرفها جيدًا كل من تعامل مع قتلة وسفاحين).

الخارس (في توسل) ولكن يا سيدى . بحق المسيح ماذا تريد أن تقتل هنا . . إن كل من تراهم حولك قتلى بالفعل (يشاور على القتلى أكثر من ٨٠ ألف قتيل تحت هذا التراب.

الزائر (في هدوء وبرود) إذن لابد من إحيائهم من جديد لأقتلهم ثانية.

الحارس (يكاد يضحك وقد أخذ أمام مخزون مخلفات العقل) ولكن يا سيدى كيف؟

الزائر هذه هى سنة الحياة.

- ومن الذى وضع هذه السنة

- القادة والمصلحون من أمثالى.

- وهل القادة والمصلحون صناعتهم القتل؟

- (صارخا) نعم أيها الأحمق .. لابد أن يكونوا قتلة ليخلقوا الأرض من الجثالة القديمة ويعلموها لعرسهم الجديد.

- إنها لقصة بشعة.

- بل هى أغنية رائعة .. قصيدة .. معزوفة موسيقية بديعة .. انظر.

يبدأ فى الضغط على الزناد ويطلق الرصاص فى الهواء بينما الحارس يقفز عينا وشمالا من الرعب والزائر يرقص مختالا بندقيته، وكأنه عاشق يحاصر معشوقته ويرقص بها .. ويطلق الرصاص فى كل اتجاه فى نشوة وهو يقول بصوت بارد -

- إنك لن تصبح قائدا .. إلا إذا استطعت أن تقتل وأنت تغنى لن تستطيع أن تصنع الحياة إلا إذا صنعت لآخرين الموت. هذه سنة الوجود.

- ولكن هذا شىء فظيع.

- أنت تقول هذا لأنك رجل تافه .. أنت واحد من الوقت التافهين

بلا إرادة . . ممن لا عمل لهم سوى أن تصدر إليهم الأوامر . . أوامرنا . . لن تكون شيئاً فى يوم من الأيام . . أنت وغيرك مسامير صغيرة فى العربة التى تقودها . .

- هذا أفضل من أن أقود عربة هى فى الحقيقة عربة الموت والفناء . .

الزائر : أنت مسمار فى هذه العربة . . أردت أم لم ترد

(يطلق الرصاص فى كل اتجاه وهو يضحك بينما الحارس يقفز فى رعب يميناً وشمالاً) .

(يكف عن الإطلاق . . وينظر فى إشفاق إلى الحارس المذعور) :

- يبدو أنه لا أمل فى شفائك من هذه التفاهة . . إن لقاء الموت فى حرب صادقة لم يعلمك شيئاً . .

- لقد تعلمت . . لقد تعلمت أنه لا فائدة . . الغالب والمغلوب كلاهما رأيتهما مهزومين خاسرين أمامى . . لقد أفلس الكل ولم يكسب أحد . . وربما كان المنتصر الحقيقى هو المهزوم . . فبلادى العزيزة المنتصرة تمد أيديها لتشحذ وتقترض اليوم من ألمانيا . . بلادى التى طردت ألمانيا من أوربا تقف اليوم مطرودة من أوربا شحاذة على بابها . . فيم كانت هذه الحرب الصادقة كما تسميها ؟

- ألمانيا الفكرة انهزمت . . وهذا فيه الكفاية . . ألمانيا النازية والفاشية انهزمت وانسحقت . . لا يهم بعد ذلك أن تنتصر ألمانيا الناس . فهم هناك يعيشون بالفكرة الجديدة التى أرادها لهم الحلفاء وهذا انتصار كاف . لقد انتصرت فكرتكم . . وهى التى

نحكم ألمانيا الآن . . ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

- الفكرة . . الفكرة . . ولكننا آدميين ولسنا أفكاراً . . نحن بشر نريد أن نعيش لا أن نشحذ .

- ولهذا سوف تشحذ لأنه لم تعد فى رأسك أفكار . . وحينما يفلس العقل فهذه بشارة بأن الإفلاس الكامل فى الطريق .

- وهل يحمل لنا مدفعك الرشاش ثراء ؟

- إنه يحمل لكم المجد .

- المجد . . المجد لمن . . المجد لك . . (يقفز من مكانه) إنى أعرف ذلك الصوت وتلك النبرة . . وهذه القامة المشرعة . . لقد رأيتك تسير فى مقدمة كل جيش منذ أن ظهرت فى العالم جيوش واشتعلت حروب . . وسمعتك فى كل مناسبة تجمل رحلة الموت بالشعر وتزينها بالعبارات الرنانة البليغة . . إنى أعرفك . .

(بصيح) أنت الشيطان ذو الألف وجه . .

(يبتسم الزائر . . ثم يضحك . . ثم ينفجر فى ضحكة شيطانية مجلجلة . .)

الحارس : أنت سفاح هذه المقبرة . . لقد أطعمت هذه الليلة قاتلى وجلادى . . أنت الذى قتلت شارل ونزعت رأسه من بين كتفيه .

- هذه المسألة يترك الحكم فيها لشارل . . ربما لو بعث حيًا لشكرنى على هذه الخدمة . . ثم إنه كان لابد سيموت على أى حال . . فما الذى يمنع من أن يموت ميتة درامية فيها كل هذا الفن . . أن تطير رأسه هكذا من بين كتفيه . . صدقنى إنها صورة شعرية

وأدبية رائعة . إنها تبدو شيئاً كالطلاسم ، وكرموز الأساطير والأحلام إنها مليئة فيها الكثير من الابتكار والتجديد . . هل تتكرم أنها تصلح صورة أو تمثالاً أو حلوة مثيرة . .

- ولكنه كان يريد أن يعيش .

- أوه . . هذه مسألة أخرى . . كلنا نريد أن نعيش ومع ذلك نموت أليس كذلك . . ؟

- بعد أن نطعن فى السن ونقضى أوطارنا من الحياة . . ولكنه مات طفلاً .

- يا لها من قصة مؤثرة محركة للشفقة .

- وهل مثلك يعرف الشفقة .

- (فى حركة مسرحية) أنت لا تعرفنى . . إن قلبى يتدفق بأنبل العواطف والمشاعر . . إن عملى هو الاشتغال بالعواطف ، وهل كان ممكناً أن تقوم كل هذه الحروب بدون عواطف ؟!

- عواطف كاذبة .

- هذا ليس شأنى .

- أنت وراءها أنت تحركها وتثيرها .

- هذا دأبكم دائماً . . تكذبون كل يوم ثم تمسحون أكاذيبكم فى وكأنى أشعلت هذه الحروب وحدى (بجد) أيها الأحمق إنى لا أحرك فيكم شيئاً ليس فى طبيعتكم . . هيا اغرب وجهك . . فلا شىء يبدو أغبى من الإنسان حينما يدعى العصمة والفضيلة ويزعم أن الشيطان هو الذى دفعه إلى كل شىء (يلتفت حوله باحثاً)

أى شيطان . (يبحث تحت السرير وتحت اللاعة وفى سلة المهملات)

إنى لا أرى شياطين هنا . لقد هربت الشياطين من زمان .. من أول طلقة بندقية .

أيها السرجنت الأحمق أفق من أحلامك . وصب كأسًا ثانية لقائد فرقتك البرجادير وطسوز .

(ينتفض الحارس واقفًا . ويؤدى التحية العسكرية وهو يهذى) :

- سيدى البرجادير . يا إلهى كيف غاب عن ذهنى هذا الوجه كم أنا أحمق .

الزائر : (فى استهانة) هذا حسن ما دمنا نعترف بأغلاطنا فى النهاية (يخرج من جيبه بسكوتًا) نيشان لك مكافأة على اعترافك بالحقيقة (يضع البسكوت على صدره) .

(الحارس يعود فيضرب سلامًا آخر ويؤدى التحية العسكرية)

- سيدى البرجادير . إنها سعادة كبرى أن ألقاك .

(يمد يده مصافحًا فى إكبار واحترام) ..

الزائر : والآن اجلس فليس أمامنا وقت نضيعه .

(يجلس فى وقار وخوف) :

(البرجادير يبسط على المائدة خريطة تفصيلية للمواقع الحربية ويشير بأصبعه) :

- ٨٠ ألف قتيل علينا أن نعمل على إحيائهم فورًا . لنقتلهم من جديد .

(الحارس يقوم وهو يرتجف ويتطلع الى الوراء فى احداث قائلاً فى بلاهة)

- سيدى البرجادير

(فى صرامة) الحرب هى الحرب .. لابد أن نقاتل .. أتعرف ما معنى أن تكون جنديًا ولا تقاتل ..

ولكن يا سيدى (يضرب سلاحًا وهو يرتجف)

- وما معنى أن تضع الياشين على صدرك ولا تفعل شيئًا .. معناه أن تشتغل فى التشريفة .. أو فى اصطبلات الخيل .. أو فى البلدية .. أو تسير على أحسن الحالات وراء الموتى (يخبط الحائط بيده فجأة ويصيح) إذا كانوا يريدون السلام لماذا يسلحوننا بالمدافع الرشاشة ؟ لماذا تملأ المخازن حتى تطفح بالقنابل والمتفجرات ؟ لماذا يصنعون المقاتلات والصواريخ ذات الرءوس الذرية ؟ لماذا ؟! ليطلقوها فى الأعياد أيها الأحمق .. ومثل .. كيف يستطيع أى بيت أن يثبت أنه برجادير كفء .. بالمشى فى الاستعراضات كل سنة ؟!

- إنهم يفعلون هذا لحماية السلام

- ليحموا أنفسهم من أنفسهم .. هيه .. اعتراف صريح بالنيات الخبيثة المضمرة

- إنه الخوف ..

- كل واحد يلبس درعًا من حديد تحت قميصه لأنه خائف من الآخر، ويحشو مسدسه لأنه خائف من الآخر، ثم يطلق الرصاص من فرط الخوف فى النهاية .. إنها نفس القصة كل

مرة .. لا .. إن السلام لا يمكن أن يبنى على الخوف . هذه مغالطة .. بالحبة والثقة والنيات الحسنة وحدها يقوم السلام .. هذه هى الحقيقة البسيطة

- هذا رائع يا سيدى .

- ولكن لست قس الأبرشية لأقول هذا الكلام . أنا البرجادير وطسون .. إن لباسى العسكرى والياشين على صدرى تكذبنى وتفضح صناعتى .. إننا نقول كلاماً ونفعل كلاماً آخر .. إننا كذابون .. كذابون .. لا شياطين هناك .. نحن الشياطين كلنا .. كلنا ..

(يستطرد الخواجة مؤدياً التحية العسكرية مرة أخرى بينما يصرخ الزائر) .

- علىّ بالذخيرة .. الذخيرة ..

(أمطار ورياح محولة فى الخارج)

(يخرج الجندى وهو يلتفت حوله فى خيال ويرتجف) .

(تراه يقف فى الصحراء حائراً .. لا يعرف ماذا يفعل) .

(الزائر فى الغرفة يصيح) .

- الذخيرة .

(أمطار ورياح مزمجرة .. الغرفة تهتز .. ثم ينقطع النور على المسرح ثم ينطفئ تماماً .. لحظة ظلام)

(صوت فى الظلام الذخيرة علىّ بالذخيرة .. علىّ بالذخيرة)

(حينما يضيء النور من جديد نرى الجندى عائداً إلى الغرفة . ولا نرى بالغرفة أحداً . إنها مرتبة منظمة كما رأيناها فى بداية الفصل) .

(والخواجة يلتفت حوله فى انبهار وهو ينبهه) :

- سيدى البرجادير .. سيدى البرجادير ..

(المائدة نظيفة لا أثر لعشاء بها)

(الحارس يبحث فى كل مكان وهو يغمغم) :

- أين ذهب الرجل ..

(يفحص الجدران .. يصيح) .

- سيدى البرجادير .. أين أنت ؟

(يبدو عليه الذعر الشديد)

(صوت نقرات على الباب)

(نقرات على كل الأبواب) ..

(الحارس يتلفت كالملهوث) .

(نسمع صوت طلقات مدفع رشاش ولكننا لا نرى شيئاً)

(ونسمع صوت البرجادير وكأنه خارج من الحائط ..) :

- وداعاً يا صديقى .. لن أغيب طويلاً .. سوف أعود إليك فى القريب ، وحينئذ يكون الألوف من ساكنى هذه المقابر قد ولدوا من جديد وتكون هناك فرصة لمذبحة جديدة (طلقات المدفع الرشاش) .

(الحارس يقفز مرعوباً فى الهواء)

الصوت : لا تخف لن أقتلك .. إن قتل فرد واحد ليس من أخلاقنا .. إنها عادة المجرمين .. أما القادة المصلحون أمثالنا فإنهم لا يقتلون أفراداً ، وإنما يقتلون بالألوف وبالشعوب جملة .. إن عملية الإصلاح عملية شاقة صدقنى .

ليلة سعيدة . . وتمنيات طيبة لأمواتك . . ولقاء قريب . .

(صوت موتور عربة يبدو عاليًا . . ثم يبتعد رويداً رويداً . .) .

(الحارس يقفز خارجًا) .

(ينظر إلى الطريق) . .

(لا يرى شيئًا) . .

(تراه يرسم علامة الصليب على صدره ويغمغم) :

- يا إلهي . . إنها الشياطين . . الشياطين . . ليحمنا الرب .

(ستار الختام)

الكنز

(فى الغرفة ٥٢ بفندق بالما بالرباط يترل عالم الآثار الإنجليزى مستر كالدويل . . رجل نحيل ممصوص محنط ، يخيل إليك أن عمره ألف سنة . . يلبس طقم أسنان ومونوكل . . ويده ترتجف باستمرار ، ودائمًا تجد تحت إبطه كتابًا . . وغالبًا ما يكون هذا الكتاب مخطوطًا قديمًا متآكلاً ، ولكن يضمه فى حنان كأنه ابن عزيز .

ومستر كالدويل يحب الكلام ، شأن كل من أمضى عمره فى التدريس . . وهو دائمًا يتكلم عن الماضى

والماضى عند مستر كالدويل هو أيام بابل وآشور ومنف ، فذاكرته تبدأ من ألف سنة إلى الوراء) .

التقيت بالمستر كالدويل فى مقصف الفندق . كان وجهه يفيض بالسرور والانشراح ، وتحت إبطه جاروف وفأس .

مال علىّ ثم أخرج من جيبه خريطة من ورق قديم مهلهل ، وبسط الخريطة بيده المرتجفة على المائدة ، ثم راح يشير بأصبعه وهو يهمس :

- هل تعرف هذا المكان . . إنه مكان هنا فى الرباط . . عند المقابر . . ولكنه طبعاً لا يمت إلى هذا العصر . . فهذه الخريطة كما ترى خريطة قديمة جدًا من أيام الإمبراطور صوكليسيان .

هل تعرف الإمبراطور صوكليسيان ؟

فظهر على وجهى الجهل التام . . وأردف يشرح :

- إنه الإمبراطور الرومانى الوثنى الذى قتل وأحرق الآف اليهود

المسجين.

(ثم عاد يشير بأصبعه المرتعشة إلى علامة بالأحمر فى منتصف الخريطة ، وراح يضغط بنبرة مشحونة بالانفعال)

- وهنا بالضبط كنز.

(وأعجبته ملامح الاهتمام التى كست وجهى فقال)

- وأنا الآن ذاهب لأكتشف هذا الكنز.

(ولوح بالخاروف والفأس)

- هل تذهب معى

(فقلت له بلا تردد)

- فوراً.

(وتركت فنجان القهوة دون أن أشربه وخرجت أهرول خلفه)

(وفى أثناء الطريق كان مستر كالدويل يتكلم عن أيام صوكليسيان وكان يتوقف بين لحظة وأخرى ليقول)

- هنا كانت توجد قلعة رومانية مكان هذا المسجد . وهنا كانت توجد حمامات رومانية . وهنا كان ملعب.

وكأنه يتمشى فى أماكن ولد فيها ويعرفها بيتاً بيتاً.

ووقف أمام أحد البارات ليتحدث عن معركة رهيبة حدثت بالسلاح الأبيض منذ ألف سنة.

وطلب منى الوقوف صامتاً دقيقة حداداً على أرواح الشهداء.

ووقفت على مضض وعقلى لا يفكر فى شهداء ولا فى معارك ، وكل خيالاتى أصبحت تجرى وراء شىء واحد هو الكنز.

ليس لدينا وقت.

الكنز

وكان يخيل إليّ في تلك اللحظة أن جميع علماء الآثار قد عرفوا الطريق الى ذلك الكنز . وأنهم يسابقوننا اليه

وشددته من ذراعه لأستعجله

ومضينا في الطريق

وأمام قرافة على أطراف البلدة . توقف المستر كالدويل وبدأ يجيل البصر حوله ، ثم يتحقق من الخريطة ، ثم أشار الى مكان على اليسار قائلاً :

من هنا

ثم بدأ يتسلق سور القرافة ، وأنا أتسلق خلفه

وظهر لنا شرطي من وراء السور كأنما انشقت عنه الأرض . .

وقلت لنفسي ضاع الكنز وسوف تبيت الليلة في زنزانة القسم ماذا سنفعل في هذه المصيبة ؟

ولكن مستر كالدويل الذي كان قد أعد لكل شيء عدته أخرج الباسبورت وناه كرة الهوية وإذناً خاصاً بالتنقيب . وسلمها للشرطي ، فتراجع هذا خطوة الى الوراء وحيانا بأدب معتذراً وانصرف . وقلت لنفسي ان مستر كالدويل هذا أعظم من شرلوك هولمز . وشعرت بالثقة والأمان واليقين ، إننا سوف نعود بكنز لم يسبق له مثيل .

ورحت أحلم بصناديق الذهب وعقود اللؤلؤ والماس .

وعادت بي الذاكرة إلى أفلام المغامرات ، وكيف كان البطل

الغواص يكتشف سفينة القرصان القديمة الغارقة ، ويتسلل إليها ثم يخرج حاملاً ذلك الصندوق الرهيب

وكان مستر كالدويل قد توقف وأشار بأصبعه وهو يقارن الخريطة بالمكان :

- هنا يكون الحفر .

وبدون أن أنتظر دعوة منه ، أخذت منه الفأس وبدأت أعمل بهمة ، وأخذ هو يعبث بالجاروف فى الأتربة التى تخرج من الحفر . وفجأة سمعته يصيح :

وانحنى يفحص قطعة حجر بعلسة مكبرة فى يده وهو يهتف :

نعم ، بالضبط . إنها كتابة . يا إلهى . من يصدق وبهذه السهولة . وبهذا القرب من السطح إلى أحلم . هذا مستحيل . هذا أمر مدهش . هذه معجزة

ولم أفهم شيئاً .

وأخذ منى الفأس وبدأ يحفر فى حنان شديد ويدق بالفأس كأنه يدق على قلب حبيبه .

وما لبث أن خرج بقطعة حجر أخرى ، ثم بلوح مكسور إلى عدة قطع ، ونظر فى اللوح ثم صرخ وهو يناوله لى :

- إله هو . . يا إلهى لماذا لا تصرخ معى ؟ لماذا لا تجن ؟

- أجن على ماذا ؟

- على الكنز .

- أى كنز .

- هذا الذى بين يديك .

- ليس بين يدى سوى قطعة حجر .

- انظر فيها . . اقرأ . . اقرأ . .

- هذه شحبطة لا معنى لها . .

- إنها ألواح صوكلبيان يا رجل . . إنها ثروة أثرية تساوى ألف مليون جنيه .

ورحت أقلب الحجارة القذرة دون أن أفهم شيئاً . . هل من أجل هذه الحجارة حتا ؟! وتبخرت أحلام الذهب والماس وكنوز الفراعنة . . وشعرت بخيبة أمل لا حد لها ، ووجدت نفسى أقول له فى حسرة :

- حسناً . . ومتى سنحصل على الألف مليون جنيه ؟

(وأجاب فى استكبار شديد) :

- يا سيدى هذه أشياء لا تباع . . هذا كنز للتاريخ لأنه لا يوجد من يملك ثمنه .

قلت له متوسلاً :

- يمكننا أن نتنازل قليلاً ونبيعه بمليون .

(فنظر إلىّ فى احتقار شديد) :

- إنها تكون جريمة . هذه شحبطة أثرية للمتحف البريطانى ، ومادة توضع عنها عشرات الدراسات والبحوث والنظريات . . هنا مجد . . مجد . .

ومضى يحفر فى هستيريا ويجمع كومة من الحجارة القذرة فى

مخلاه .

ووقفت أتفرج وأنا أؤكد لنفسي أني لابد رجل جاهل جدًا لا أفهم في الدنيا شيئًا

وفي الطريق إلى الفندق كان مستر كالدويل يتكلم بسرعة مائة كلمة في الدقيقة ، وكان يخيل إلى أن الرجل جن .

وكان أول ما فعله عند وصوله إلى غرفته أن أفرغ المخلاة على الأرض وركع يفحص كل قطعة حجر وهو يكاد يقبلها من الفرحة .

وأسرع يحرر عددًا من البرقيات

وطلب لندن على التليفون عدة مرات

ولا شك أنه لم ينم تلك الليلة

وقضيت أنا الليلة أفكر وأحبط كفًا بكف وأقول : هذه الدنيا مليئة بالمجانين . ولكن الصباح التالي كان يخبئ لي مفاجأة أعجب . فقد أقبل خدم الفندق وأنا أشرب القهوة وهم يهتفون في ذعر . تعال الحق صديقك

وفي غرفة مستر كالدويل رأيت الرجل منهاراً على الأرض وهو يصيح بصوت مخنوق :

- الجر . الجرسون . الجر . الجرسون .

- ماذا فعل الجرسون

- رمى ألواح صوكليسان في الزبالة في حين كنت في مشوار بالبنك . وكان الجرسون واقفاً أصفر الوجه من المفاجأة يقول لي

حيرة وهو يقلب كفيه :

- يا سيدى لقد وجدت كومة من الحجارة القذرة المغبرة ملقاة على أرض الغرفة فكنستها ، ماذا كان متوقعاً منى أن أفعل غير ذلك .

- ولكنها ألواح صوكليسيان ، ألواح صوكليسيان .

- يمكننى أن أجمع لك كومة حجارة أخرى مثلها من الطريق يا سيدى .

وشعرت أن مستر كالدويل سوف يغمى عليه من هذا الرد ، وقال بصوت مشروخ :

- ولكنها ليست حجارة إنها ألواح صوكليسيان .

وتحولت نظرته إلى نجيب مختنق :

- ألواح صوكليسيان ، ألواح صوكليسيان .

ووقف الخرسون يقلب كفيه دون أن يعرف لماذا يجب .

* * *

أفيش مثير

خيل إلىّ لأول وهلة وأنا أنظر إلى القفص من بعيد أنى أرى بداخله زهرة فاقعة الألوان ، ولكن حينما اقتربت تبين لى أن ما حسبته زهرة لم يكن إلا الأعضاء التناسلية لفرد من ذلك النوع المعروف من قرود الكونغو التى تتميز بأعضاء تناسلية ملونة . منظر مألوف يراه الأطفال فى حدائق الحيوان ويضحكون عليه .

ولكن بالنسبة لى كبيولوجى كان أمرًا مثيرًا للتأمل .

لماذا عادت الطبيعة فى هذا القرد إلى أسلوبها القديم .

إنها لم تلجأ إلى تلوين الأعضاء التناسلية إلا فى النباتات .

فالورد فى النباتات (بما فيه من أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث) دائماً ملون . الطبيعة أضفت عليه ألوانًا جذابة مبهجة ، وأكثر من هذا جعلته فى مكان ظاهر ملفت على سطح النبات ، وكأنه وسام تفتخر به . . أما فى الحيوان فقد غيرت الطبيعة سياستها وعمدت إلى إخفاء الأعضاء التناسلية وطمس معالمها ، وإن كانت قد نسيت الشفاه والحلمة كأعضاء ثانوية ملونة على الوجه والصدر .

الطبيعة كانت دائمًا مهتمة بعمل بروباجندا للتناسل ، بروباجندا على طريقة الأفيشات الملونة .

ولكنها فى الحيوان غيرت طريقتها وابتكرت طريقة أخرى أذكى هى الغريزة الجنسية . تلك القوة غير المنظورة والعمياء التى تدفع بالذكر إلى الأنثى دفعًا دون حاجة إلى أفيشات .

كنت أفكر فى هذا وأنا أنظر إلى القرد الحبيس فى القفص وهو يلهو مسرورًا بأعضائه التناسلية الملونة ، ويشم أثناء ويقفز حولها فى براءة فى حين يصفق الأطفال ويصفر الأولاد ويقذفون له بالسودانى والفول الحراق .

وكان واضحًا أن هذا القفص بالذات قد فاز بأكبر مجموعة من الجمهور . وكان واضحًا أيضًا أن هذا القرد هو دائمًا نجم الشباك رابحة بدليل قشر السودانى المتراكم فى قفصه بكثرة غير ملحوظة فى باقى الأقفاص .

وتذكرت الأفلام المصرية والمجلات التى تختار أغلفتها على طريقة هذا القفص .

وتذكرت البكينى .. والميلى جيب .. والسوتيان المودرن ذا الحلمة .. والكلوت المودرن ذا الشباك (ماركة تليفزيون) والمخرجين الذين يسلطون الكاميرا على مؤخرة الراقصة . وسمعت من ورائى حليمة امرأة فى الأربعين تهمس لزوجها الذى وخط الشيب رأسه .

- فاكر زمان فى أول جوازنا لما كنت عامل زى القرد ده .

- يا ولية اخترشى .

وقهقهت المرأة وكان يبدو فى صوتها السعادة فى حين راح الرجل

ينفث الدخان فى عصبية من فمه ، ويأخذ عدة أنفاس دفعة واحدة من سيجارته ، ويخدب المرأة بعيداً عن القفص وإلى جوارى كان هناك شاب يضع ذراعه فى ذراع فتاة . وكانت الفتاة تشيح بوجهها وقد تضرج بالحمرة ، والشاب يضغط يدها هامساً .

- رضه مصرة على إلك تروحى البيت دلوقتى

- الساعة واحدة ورمان بابا جاى ...

- قوليله كان عندك محاضرات إضافية .

- مش معقول .

- مش معقول ليه .

- ما أقدرش قلت لك ميت مرة ما أقدرش .

- حاتقعد نص ساعة بس .

- ولا دقيقة

- طب تروح كازينو .

- أبوه كازينو معلهش .

- اسمعنى بقى

- أنت عارف مبادئى

- وهو يعنى لما تيجى تروريني تبقى حاجة ضد مبادئك ، ولما تروح لحال تبقى متمشية مع مبادئك .

- عاوز تخدلى مصر الجديدة عندك أنت اتجننت

- اتجننت ليه . فيها ايه . حاتقعد تشرب شاى .

- طيب ما نشرب الشاى .. فى جزيرة الشاى

(وضحك الاثنان وقالت الفتاة فى حزم)

- اوعى تفتح الموضوع ده تانى . سامع

- سامع

(ولكنهما ظلا واقفين أمام القفص)

(وعضت الجول فى الحديقة)

(ولكن موضوعاً واحداً ظل يلح على ذهنى ذلك السؤال البيولوجى الصرف)

لماذا عادت الطبيعة إلى أساليبها القديم مع ذلك الفرد ؟!

لماذا عادت إلى طريقة الأفيشات الملونة فى الدعاية

ألم تكن الغريزة كافية ؟!

وهل يمكن أن تحدث أمثال هذه الردة مع الانسان فيخرج ما نسل له ذيل أو خياشم أو عرف كعرف الديك ؟ أو رقبة كرقبة الزراف ؟ أو جناحين كالطيور

هل كانت الطبيعة تلهو ؟

ونسيت حكاية الفتى والفتاة ، وانشغلت بهذا السؤال البيولوجى العويص .

وكان أمرًا مثيرًا للفزع أن تلعب الطبيعة معى هذه اللعبة فأنجب طفلاً له ريش ، أو طفلة لها دربة كالسلحفاة

وإذا كانت الطبيعة ارتدت من الحيوان إلى النبات دفعة واحدة ، فإنها يمكن أن تقع فى ردة أبسط من إنسان لحيوان مثلاً .

وكان الخاطر ، مجرد الخاطر فظيعاً جعلني أنسى كل شيء

وكنت أعلم كيوتوحي أن هذا ممكن

وكلنا نقرأ في الصحف عن طفل ولد بشعر ، وطفلة ولدت بأصابع غشائية كأصابع الضفدعة . إلى آخر هذه المسوخ التي تمزح فيها الطبيعة مزاحها الثقيل المخيف

لماذا تفعل الطبيعة هذه الأفعال ؟ هل وراء ذلك حكمة ؟!

أو هو الخطأ كما يرتد الشيخ فيتصابى ويصبغ شعره ويبحث عن لوليتا ، ثم يرتد في النهاية طفلاً يبكي على قطعة حلوى . كذلك يمكن أن تخطئ الطبيعة

كنت غارقاً في هذه التساؤلات

وكنت أشعر أن هذه التساؤلات أكثر من مجرد تساؤلات علمية

فهي تمس شخصيًا بل هي تمس جنسنا كله

وكنت أحك جبهتي باحثًا عن جواب

وكنت قد بلغت باب الحديقة

ورأيت الفتى والفتاة على الباب

(كان يبتسم وأخي يفتح لها باب التاكسي وهو يقول للسائق بصوت راقص من الفرحة) على مصر الجديدة

ثم يجيط خصرها في حنان ويدفع بها إلى داخل التاكسي

وتذكرت الحوار الخامس

أخيرًا ، أخيرًا وافقت

شكرًا للقرد

لا شك أنها وظيفة ثانوية لم تفكر فيها أمنا الطبيعة حينما سوت لنا القرد على هذه الصورة . . ولم يفكر فيها القرد أيضًا . لقد نجح الأفيش .

* * *

الرجل الذى تحول إلى ضوضاء

فى مثل تلك الساعة من الليل ، كان الكورنيش الممتد بطول البحر يبدو كثعبان ميت .. لا صوت .. لا حركة .. لا حياة ..

البحر يوشوش كأنه يقول كلمة السر .

وأعمدة النور شاخصة فى سكون كحطارين تنصت وقد أشرعت رءوسها المضيئة . والسماء خباء أسود مليء بالخروق تطل منها ملايين العيون الدقيقة تومض وتبرق .. ورذاذ المطر ينزل شحيحاً من جو مشبع بالرطوبة لدرجة التخمة .

ورائحة الأصداف والطحالب تضوع بذلك العطر القديم قدم الطبيعة وصوت أقدامى البطيئة تتردد مبللة هى الأخرى بالرطوبة . وأنا متكئ على سور الكورنيش أحملق فى الظلمة بلا نهاية . أصغى إلى وشوشة البحر أحاول أن أفهم كلمة السر . من أين ؟ إلى أين ؟ وكيف ؟ وماذا ؟ وماذا وراء ؟ وما الغاية ؟ وما المعنى ؟ وما السبب ؟

أحاول أن أفهم اللوحة والرسم والرسام .

وأعود فأتذكر أنى لست سوى رسم صغير تافه ثانوى فى اللوحة الكبيرة .. مجرد خط .. بقعة لون .. نغبشة .. مثل هذه النغبشات الصغيرة التى تنعقد وتنحل على سطح الماء وتختفى بلا عودة .

نقطة فى طوفان .

أحاول أن أفهم .

والموج يعلو .

منذ ألف سنة كان الموج يغطيني .

لم أكن موجوداً .

وفي غيبوبة الصمت والسكون والإغراق في التساؤل لم أسمع ذلك الصوت الذي كان يزحف سريعاً مقتحماً الشارع كأنه خنجر .

ومن خلق ظهر ذلك الشيء الأسود فجأة .

عربة طويلة أنيقة فارهة مثل سكين سوداء النصل .

وكانت لحظة قصيرة جداً حدث فيها كل شيء بسرعة مذهلة .

اصطدمت العربة بالكورنيش محدثة صوتاً فظيعاً مروعاً ، ثم تهشمت ووقفت كصرصور كبير فقد رأسه .

وتعاقبت بعد ذلك الأحداث في نظام واستطراد دقيق .

انفتحت عدة نوافذ وأبواب وخرجت وجوه سهرانة .

خدم المقاهي وعلب الليل وخفراء وبوابون .

وتجمعت حلقة صغيرة ، وامتدت عدة أعناق داخل العربة ، وسمعت عبارات قصيرة مقتضبة :

– نعم إنه هو .

– إلى جواره زجاجة الخمر فارغة كالمعتاد .

– مات . انتهى أجله .

– يستحق هذه النهاية .

– فلتسق سكير هانك حرمات .

- جمع ثروته من بيع المخدرات.
- من قتل يقتل ولو بعد حين.
- بالأمس صدم طفلا فى هذا المكان.
- متزوج من ثلاث نساء وكان يلتقط فتيات الليل من الطريق.
- عمن تتحدثون.. أنتم مخطئون.
- إنه رجل آخر.
- إنه حضرة المقاول.
- الذى بنى عمارة الكورنيش التى انهدمت.
- الغشاش الذى غش فى المواصفات وبنى العمارة بدون مسلح ليضاعف من أرباحه.
- الله لا يبارك فى الحرام.
- انهدمت العمارة على السكان الأبرياء وماتوا
- ليشرب هو الخمر ويقود العربة البويك فى منتصف الليل كالمجانين.
- الله اقتص من الظالم.
- ولكنه ليس المقاول.. إن المقاول لا يركب عربة سوداء.. إن عربته حمراء وشيفروليه وهو الآن فى الكويت.
- إذن من يكون.
- لقد عرفته إنه مدير السجن.
- الذى كان يعذب السجناء.
- دون أن تكون لديه أوامر.

- إنه مريض بالسادية .
- هذا غير صحيح فمدير السجن معتقل الآن رهن التحقيق .
- نحن أمام رجل آخر .
- أظن أنه مدير الجمرك .
- الذى أثرى من التهريب .
- بل هو التاجر الكبير الذى نشرت عنه الصحف .
- الذى كان يتاجر فى أدوات الاستيراد .
- لا أظن فهو لايبدو من ملامحه أنه مصرى .
- شكله إيرانى .
- بل هو تركى .
- أبداً . . هذه ملامح مألوفة . . لا يمكن أن يكون هذا الوجه أجنبياً .
- إذن من يكون .
- واحد . . أى واحد .
- كان يشرب الخمر وأفرغ الزجاجة .
- ولماذا كان يشرب الخمر ؟
- هذا شأن البوليس .
- لم يعد من شأن أحد .
- لقد مات .

وكانت الحلقة تتسع شيئاً فشيئاً ، والأسئلة تتداخل كالدوائر ، وجاء البوليس والإسعاف والنيابة والصحافة .

وكثرت الأسئلة .

وارتفعت الضوضاء .

وأصبحت لغطاً .

وفى الصباح وأنا أمر بالمكان فى طريق إلى عملى لم أجد العربة المهشمة .. ولم أجد أحداً .. ولا بقعة دم .

كانت الطيور البيض تحلق على الماء .

وصفارات السفن تسمع من بعيد .. وكل واحد يسير فى حالة .

انتهت الضوضاء .

وسور الكورنيش نظيف مغسول حتى الأسمنت الذى تهشم قد تم ترميمه وعاد إلى سالف حاله .

لا أثر .

ولا ذكر لذلك الذى كان .. ثم لم يكن .

والسؤال ما زال كما هو بلا جواب .

وأمواج البحر العالية ذابت واختفت .

وانبسط البحر كالحصير .

والماء ما زال يوشوش هامساً بكلمة السر .

* * *

السارق

كان المبشر المسيحى يجمع حوله حلقة من الزنوج العراة فى صباح استوائى شديد الحرارة ، وأوراق أشجار الموز ترسل ظلالاً رحيمة ، وحبات الندى تلمع على ثمار الأناناس كأنها قناديل من الكريستال والرطوبة تقطر من الأنامل .

وكان المبشر يشرح وصية الإنجيل . لا تسرق . .

وكان الزنوج العراة ينظرون إلى بعضهم البعض ولا يبدو عليهم أنهم يفهمون شيئًا . فها هو ذا الرجل الغريب يكلمهم عن أشياء عجيبة .

لا تسرق ماذا . . كل واحد ينظر إلى الآخر ويهمس .

إنهم عراة لا يملكون حتى خرقة على اللحم . . والفواكه على الشجر . . والصيد يمرح فى الغابة . . والأرض لا صاحب لها . .

والكوخ ليس فيه شىء . . ماذا يملكون ليسرقوا .

حتى الكوخ تبنيه القبيلة لكل من يتزوج وتقدمه هدية لم يبق إلا النارجيل .

ولكن كل من يطلب النارجيل تعطيه النارجيل ، فلماذا يسرقه والغابة مليئة بالبوص وكل من يريد أن يصنع لنفسه نارجيلا فأسهل عليه أن يصنع عشرات النراجيل ولا يسرق واحدًا .

إن الرجل الأبيض يتكلم كلامًا غريبًا .

أسهل أن يدخل الجمل ثقب إبرة من أن يدخل الغنى جنة الله .

ولكن من هو الغني هذا ؟!

الذي يملك أموالاً كثيرة وضياعاً .

ولكن ليست عندنا أموال ولا ضياع .

ونحن لا نتعامل بالنقود .

نحن نتبادل الخدمات ونعيش بالقناعة .

هذا مخلف ، سوف نصنع لكم العسل ونعلمكم كيف تستعملونه . . وبعد ذلك سوف ينشأ بينكم الأغنياء ، وبعد ذلك سوف يكون الغنى حراماً .

ولماذا كل هذه اللغة الطويلة ، هذه أمور معقدة جداً لقد بدأ الدرس يصعب ويتعسر فهمه .

يجب أن يكون لكل واحد منكم زوجة واحدة فقط ، إن تعدد الزوجات زنى ، وأمرًا منكرًا لا يرضاه الله ، معصية كبرى واحدى واحد من الزنوج يقول فى تلعثم :

ولكن قرأت ياسيدى فى الكتاب المقدس الذى وزعته علينا مترجماً بلغتنا ، أن النبى سليمان تزوج أكثر من سبعمائة امرأة ، وكانت له خليلات غير زوجاته ، وكذلك كان النبى داود .

أرجوك يا سيدى اتركنا نمشى خلف داود وسليمان .

وظهر الحرج على وجه الرجل الأبيض وقال فى ارتباك :

- هذه أمور تاريخية وقد تغيرت ظروفها والله قد غيرها وعلينا أن نطيع كلماته .

- ولكنى عوت فى عشرة أبناء كل سنة بالملاريا والحمى والصفراء

ومرض اليوم ولو تزوجت واحدة فلن يبقى لى نسل

- هذه مسألة لا تهم

فنظر كل زنجى إلى الآخر فى استغراب ثم قال أحدهم :

- وهل هى مسألة لا تهم الله أيضًا

- الله يحفظ عباده الأتقياء.

ولم يفهم أحدهم كيف يحفظ الله عباده الأتقياء من العوض وذباب التسى تسى ؛ ولم يفهم أحدهم كيف يكون تقيًا ولكنهم فهموا جيداً أنهم لابد أن يتزوجوا كل واحد بواحدة ، وأنهم بهذا سوف يقرضون وأن هذه مسألة لا تهم السيد الأبيض فى شىء.

(ومسح البشر عرقه بمنديل حريرى جميل وقال) :

- هذا يكفى للدرس اليوم . وكل واحد يذهب الآن إلى كوخه . . وغدًا نلتقى فى المنجم .

وفى الغد كان رتل طويل من الزنوج يعملون فى المنجم يدخلون الأنفاق الطويلة ثم يخرجون حاملين جوالات معبأة بالأتربة المعدنية .

وكان الرجل الأبيض واقفًا فى مدخل الأنفاق يدخن .

وخطر لأحد الزنوج سؤال فاقترب من الرجل وحياه فى أدب ثم قال :

- سيدى هل أستطيع أن أسأل . . إلى أين تأخذون هذا التراب ؟

(فأجاب الرجل فى اقتضاب)

- إلى الباخرة الراسية فى الميناء كما ترى .

(ولم يد الجواب شافياً لفضول الزنجى فعاد يسأل) :

- وأين تذهب الباخرة به بعد ذلك ؟

(فعاد الرجل يجيب فى ضيق) :

- إلى انجلترا .

(ففكر الزنجى بسرعة ثم قال فجأة) :

- سيدى . . أليست هذه سرقة كما يقول الإنجيل ؟

(فأجاب الرجل محرجاً) :

- ولكننا سوف نعيدها إليكم مصنوعات جميلة .

(فقال الزنجى فى فرحة) :

- وسوف توزعونها علينا مجاناً .

(فقال الرجل) :

- وهل هذا معقول أن يعمل العمال فى بلادنا بدون أجر .

(فغمغم الزنجى فى استغراب) .

- هذه أمور عجيبة .

(وعاد يجمل حواله ويدخل النفق وهو ما زال يفكر . . ويقول لنفسه) :

لا شك هذه أمور عجيبة فيها نحن أولاء نعمل بدون أجر . .

وتعطى لهم تراب أرضنا بلا ثمن .

لا شك أن ديانات هؤلاء الناس غريبة جداً .

الفهرس

صفحة

الطوفان ٣

سكر ولون ٤٥

الوهم والحقيقة ٥٩

أنشودة الدم ٦٩

الكنز ٩٥

أفيش مثير ١٠٥

الرجل الذى تحول إلى ضوضاء ١١٣

السارق ١٢١

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٥٥١٣
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٠٥٩-٥

١٨٨ / ٨٤ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب ح

Mahmoud

خاص بصفحة

Dr.Mostafa